

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾



لا يُصلِحُ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّة إلاّ مَا أَصْلَحَ أَوَّلَـهَا

مجلة جامعة تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

السنة التاسعة .العدد السادس والأربعون: رجب/شعبان 1436هـ الموافق لـ ماي/جوان 2015م

جديد الفتاوى...

في حكم وضع أجهزة التَّصوير في المسجد

في حكم إجارة الثِّياب والحُلِيِّ للمناسبات

مساوئ الكذب وأضراره

د.كمال قالمي

ضابط الانحراف عن القبلة

عباس ولد عمر

إرضاء الله وإرضاء الخلق

عمر الحاج مسعود

الخوارج

أسماؤهم وأوصافهم

نجيب جلواح



السعر: 200دج رقم الإيداع القانوني: 3623. 2006 ISSN: 1112. 6825

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ للهِ، نحمدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ مِنْ شرورِ أنْفُسِنَا ومِنْ سَيِّئَاتِ أعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له.

وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧١].

أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُها، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وكُلَّ ضَلاَلَةٍ في النَّارِ.

■■■





لغةُ العلم

يتميَّز السَّلفيُّون عن غيرهم أنَّهم يتعاملون بلُغَة العلم الشَّرعي الصَّحيح، فلا السِّياسَة يُمارسون، ولا طقُوسَ الصُّوفيَّة يُعانون، ولا طرائقَ الفَلسَفة يسلكُون، ولا أساليبَ الحزبيَّة يستَعملون؛ وإنَّما يَشغلُهم العلمُ ـ تعلُّمًا وتعليمًا ـ لكونه الوسيلة النَّاجعَة لانتشال الأمَّة من بَراثن الجهل، ووضعها على دروب الخير والصَّلاح والفَضيلة.

ولهذا عُلِّقَ نَيْلُ الشَّرف بالعلم، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11]، فلا يُنظر إلى صُورة وخِلقة، ولا يُلتَفت إلى نَسَب ووَطَن، ولا يُعبأُ بمنصب ووظيفَة، وإنَّما العُمدَة على ما يحمله الرَّجل من علم صحيح يرفعه الله به، ويفتَحُ به قلوبًا غُلفًا وأعيُنًا عُميًا وآذانًا صُمًّا، ما يكونُ له الأثَر الجميل على النَّاس، فهذَا هو العالم الَّذي أُمرت الأمَّةُ أن تُنزلَه المنزلةَ الرَّفيعَة، وتبوِّئَه مقام الإمامة في الدِّين، وتَسمَحَ لعلمه بالذُّيوع والانتشار.

وأمَّا النَّغماتُ الجاهليَّة اليوم فهي تُريد لهذَا العلم أن ينحصر مجالُه وتقوَّضَ أركانُه ويُحدَّ انتشارُه، ويُصدَّ النَّاسُ عن حَمَلَته بشُبَه واهية، كقولهم: إنَّ العالمَ الَّذي بالحجاز أو بالشَّام لا يمكنُ للمَغربي أو الجزائري أن يأخذ عنه العلمَ لاختلاف الأقاليم والعادات والمذاهب ونحو ذلك، والحقُّ أنَّه لا يُنكر أثرُ بعض ذلك في الفتوى؛ لكن لا يصحُّ أن يُسحَبَ ليكونَ حجَّةً لحَجْب النَّاس عن العَالم وحَجْزهم عن علمه، وإنَّ المفتي المؤهَّل يفقَه الواقعَ، ويفهَمُ الواجبَ في هذا الواقع بإنزال الحكم الشَّرعي المناسب، فلا يُهملُ الفروقَات، ولا يفرِّقُ بينَ المتمَاثلات.

لهذا لم يكن لهذه الحدود الوهميَّة يومًا ما أثرٌ في لغَة العلم وفي علاقة العالم بالمتعلِّم، بل لم تحفظ كتب التَّاريخ والتَّراجم سوى التَّواصُل والتَّداخل بين الشُّيوخ والطُّلاَّب، وبين عُلماء الأمصار المختلفة، فالعراقيُّ يتعلَّم منَ الحِجازي، والمغربيُّ يروي عن المصري، واليمني يستَفتي الشَّامي وهكذا.

فالعلم حبلٌ متينٌ تُوصَل به الأمَّة، ولغةٌ حيَّةٌ يتواصل بها أفرادها على اختلاف ألوانهم وأوطانهم وألسنتهم، لتشتدَّ أواصرُها ويستَقيمَ أمرُها؛ والخائنُ مَن يُحاول قطعَ هذا الحبل أو طمس هذه اللُّغة؛ ذلكَ لأنَّ الفتَنَ الواقعةَ اليوم لا يدفعُها علمٌ شاميٌّ أو علم مغربيٌّ أو علم حجازيٌّ، بل يدفعُها علمٌ شرعيٌّ صحيحٌ مستَمدٌّ من الكتاب والسُّنَّة على فهم السَّلف أيًّا كانَ حاملُه؛ فالبلد أو الجهة وصفٌ طرديٌّ لا أثَر له في الحكم، والعالمُ لا يُصبَغُ علمُه بجنسيَّته، ولا تُقصَر الاستفادة منه على أهل بلده؛ كيفَ وقد شبَّه النَّبيُّ ﷺ العالمَ بالبدر، ومعلومٌ أنَّ نورَ البدر يبلُغ جميعَ الأقطار، وتَراه جميعُ الأبصار؛ إلا عينٌ عليها غِشَاوَةٌ، أو عقلٌ سَبَتْه غباوةٌ، نسأل الله العفو والسَّلامةَ.



مجلة جامعة تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع



المدير
توفيق عمروني

رئيس التحرير
عز الدين رمضاني

أعضاء التحرير:
عمر الحاج مسعود
عثمان عيسي
نجيب جلواح
د.رضا بوشامة

التصميم والإخراج الفني:
دار الفضيلة للنشر والتوزيع

الطباعة:
مطبعة الديوان

عنوان المجلة:
دار الفضيلة للنشر والتوزيع
التعاونية العقارية (الإصلاحات) ـ قطعة (44) عين النعجة ـ الجزائر

الهاتف والفاكس: (023) 57 56 38
(النقال): (0559) 06 99 92
التوزيع (جوال): (0661) 62 53 08

البريد الإلكتروني:
darelfadhila@hotmail.com

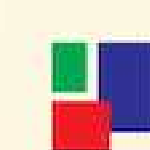
الموقع على الشبكة العنكبوتية:
www.rayatalislah.com



العدد السادس والأربعون ـ السنة التاسعة:
رجب ـ شعبان 1436 / ماي ـ جوان 2015

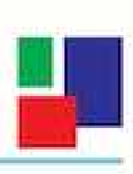

من مشكاة السنة
مساوئ الكذب وأضراره

مساوئ الكذب وأضراره



ضابط الانحراف عن القبلة

غلاف العدد السابق



إرضاء الله وإرضاء الخلق



33

الخوارج أسماؤهم وأوصافهم



54

قواعد النشر في المجلة

- أن تكون الموضوعات مطابقة لخطة المجلة، وموافقة لمنهجها.
- أن يكون المقال متسمًا بالأصالة والاعتدال.
- أن يحرَّر المقال بأسلوب يحقق الغرض، ولغة بعيدة عن التكلف والتعقيد.
- الدقة في التوثيق والتخريج مع الاختصار.
- أن تكون الكتابة على الكمبيوتر، أو بخطٍّ واضح مقروء؛ وعلى وجه واحد من الورقة.
- ألا يزيد المقال على خمس صفحات.
- أن يذكر صاحب المقال اسمه الكامل وعنوانه ورقم هاتفه، ودرجته العلمية إن وجدت.
- المقالات أو البحوث التي لا تنشر لا تردُّ لأصحابها.

المراسلات على عنوان المجلة باسم رئيس التحرير:

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

التعاونية العقارية (الإصلاحات) ـ قطعة (44)

عين النعجة ـ الجزائر

الفاكس: 38 56 57 (023)

البريد الإلكتروني:

darelfadhila@hotmail.com

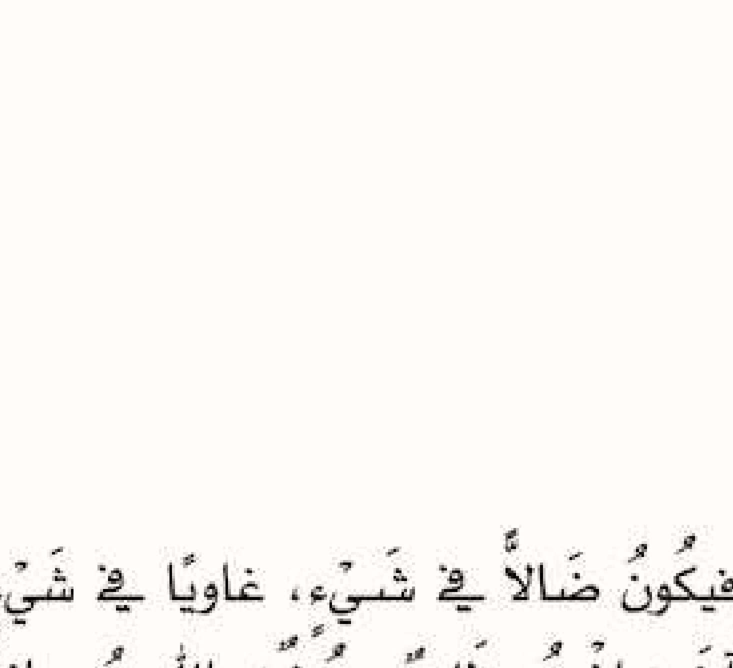
سعر النسخة: (200 دج)

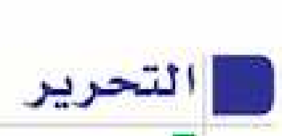
الاشتراك السنوي للأفراد: (1200 دج)

الاشتراك السنوي للمؤسسات: (1500 دج)



العلم والعدل





العلم والعدل أصلان عظيمان، لو تمسَّك بهما الخَلقُ في كلِّ حال، وفي كلِّ زمان، وفي كلِّ مكان لاسْتقامَت الدُّنيا، واطمأنَّ كلُّ امرئٍ في نفسه، وأمِنَ على عرضه وماله؛ ذلك لأَنَّ تركَ العلم والخروجَ عن العدل يعني الولوجَ في الجهل والظُّلم، وهما أصلُ كلِّ شرٍّ يقع في الأرض؛ سواءٌ على مستوى الأفراد والجماعات، أو على مستوى الدُّول والمُجتمَعات، فأيُّ منهج أو فكرٍ أو تصوُّرٍ أو تخطيطٍ لا يُبنَى على العلمِ والعدلِ فمآلُه إلى الانهيار والزَّوالِ والأفُول، فالجهلُ حبلُه قصيرٌ، والظُّلمُ مَرتَعُه وخيمٌ.

والعلم والعدلُ وصفَان مُلازمان للإنسان ومُتلازمان، يجرُّ أحدُهما الآخَر، ويدعو إليه وضدُّهما كذلك، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب]، فبظُلمه يكونُ غاويًا، وبجهله يكونُ ضَالاًّ، وكثيرًا مَا يجمَعُ بينَ الأَمرَيْن الغوايةِ والضَّلالةِ، فيكُونُ ضَالاًّ في شَيْء، غاويًا في شَيْء آخَر؛ إذْ هُو ظَلومٌ جهُولٌ؛ والله سُبحانه يُعاقِبُ على كلٍّ من الذَّنبَيْن بالآخَر، كمَا قالَ تعَالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة : 10]، وكمَا قالَ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف : 5].

كمَا يُثابُ المؤمنُ على الحسَنَةِ بحسَنَة أُخْرَى؛ فإذا عمل بعلْمه ورَّثَهُ الله علمَ مَا لم يعلَم، وإذا عملَ بحسَنَة دَعَتْهُ إلَى حَسَنَة أُخْرَى، وهكذا...[1].

ولهذا؛ كانَ أسعَدَ النَّاسِ هُو مَن تابَ إلى الله من جهله وظُلمه، ودفعَ هاتَيْن الآفتَيْن عن نفسه وابتَعد عنهُما، وإنَّهما لا تُدفعَان إلاَّ بمُتابعة الأنبياء عليهم السلام ذلك لأنَّ الأنبياءَ بُعثُوا بالعلم والعَدل، فعلَى قَدْر اتِّباعهم يتحَقَّقُ العَلمُ والعَدلُ؛ وعلى قَدْرِ مخالفة أمرهم يقَع المرءُ في الجهل والظُّلم، قال الله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [النجم]، فبيَّنَ ـ سُبحانه وتعَالى ـ أنَّ نبيَّه ﷺ ليسَ ضَالاًّ جاهلاً، ولا غاويًا مُتَّبعًا هواه، ولا ينطِقُ عن هواه، وإنَّما نطقُه وحيٌ أوحاه الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفتح]، فالهُدى يتضَمَّنُ العلمَ النَّافعَ، ودينُ الحقِّ يتضَمَّنُ العَمَلَ الصَّالحَ، ومبنَاه على العَدل، كمَا قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد : 52][2].

وإنَّ أصلَ العلم هو العلمُ بالله تعالى ومعرفةُ أسمائه وصفاته وتوحيده؛ قال الله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد : 19]، وهي المعرفةُ الَّتي تُورِّثُ خشيةَ الله الَّتي تحول بينَ العبد وبينَ معصيةِ ربِّه؛ لهذا اتُّفِقَ على أنَّ كلَّ مَن عصى الله فهو جاهلٌ.

كما أنَّ أصلَ العَدل هو العَدلُ في حقِّ الله تعالى، وهو عبادتُه وحدَه لا شريكَ له؛ فإنَّ الشِّرك ظلمٌ عظيمٌ، كما قال

(1) «جامع الرسائل» لابن تيمية (1/230).

(2) «الجواب الصحيح» لابن تيمية (106/1).

لقمانُ لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [سُورَةُ لُقۡمَانَ].

فلا يَنفكُّ العبدُ عَن الجَهل والظُّلم إلاَّ بأن يُعلِّمَه اللّه ما ينفعُه، ويُلهِمَهُ رُشْدَه، فمَن أرادَ به الخيرَ علَّمه ما ينفَعُه، فخرَجَ به عن الجهل، ونفعَه بما علَّمَه، فخرَجَ به عَن الظُّلم، ومتَى لم يُرِدْ به خيرًا أبقَاه على أصل الخلقَة.

فالنَّفسُ تهوى ما يضرُّها ولا ينفعُها؛ لجهلها بمَضَرَّته لها تارةً، ولفسَاد قصدها تارةً، ولمجموعهما تارةً، وقد ذمَّ اللّه تعالى في كتابه مَن أجابَ داعيَ الجَهل والظُّلم، فقَال: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٠﴾ [سُورَةُ القَصَصِ]، وقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ٢٣﴾ [سُورَةُ النَّجۡمِ].

فأصلُ كلِّ خير هُو العلمُ والعَدلُ، وأصلُ كلِّ شرٍّ هُو الجهلُ والظُّلمُ.

وقَد جعل اللّه سبحانَه للعَدل المأمور به حَدًّا، فمَن تجاوزَه كانَ ظالمًا مُعتديًا، وله منَ الذَّمِّ والعُقوبة بحَسَب ظلمه وعدوانه الَّذي خرجَ به عن العَدل، ولهذَا قَال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾ [سُورَةُ الأَعۡرَافِ]؛ وقال فيمَن ابتغَى سوَى زَوجَته أو ملك يمينه: ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٧﴾ [سُورَةُ المُؤۡمِنُونَ]، وقال: ﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ].

والمقصودُ أنَّ محبَّةَ الظُّلم والعُدوان سببُها فسَادُ العلم، أو فسادُ القَصد، أو فسادُهما جميعًا[3].

فعلى الإنسان أن يطلُبَ العلمَ الصَّحيحَ النَّافعَ ليَرفَعَ الجهلَ عن نفسه، وليعرفَ به الهُدَى والحقَّ ومواقعَ العَدل والرُّشد، ويتَحرَّى بعد ذلك العلمَ والعدلَ في أقواله وأفعاله وفي جميع أحواله، فلا يُغلِّبُ إلاَّ ما غلَّبَه الشَّرعُ، ولا يقرِّبُ إلاَّ ما قرَّبه الشَّرعُ؛ ولا يحكمُ بنَزْوَةٍ ولا بشَهْوَةٍ، ولا بهوًى ولا بذَوْقٍ ولا غَيْرَةٍ زائدة، فلا يرفَع مَن لم يرفَعْه الشَّرعُ، ولا يضَعُ مَن رفَعه الشَّرعُ، زِمامُ أحكامه على مقالات النَّاس ومذاهبهم وأفعالهم الكتابُ والسُّنَّةُ على أَحكَم الفُهُوم، وأصَحِّ النُّقول، وأقْوَم الطُّرُق.

فهذا الَّذي يحبُّه اللّهُ تعالى من عبده، وهو أن يكونَ سائرًا في أمره كلِّه على العلم والعدل، لا يَخرُجُ في شيءٍ من أحكامه عنهما أبدًا، وبهذا وحدَه يَضمَنُ المرءُ لنفسه نُصرَةَ اللّه له على أعدائه، وتأييدَه له على خصومه، وتوفيقَه للمحامد؛ قال شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ الإنسانَ إذا اتَّبعَ العدلَ نُصر على خصمه، وإذا خَرجَ عنهُ طَمَع فيه خصمُه»[4].

ولا يتعلَّقُ هذا بالأمُور الكلِّيَّة والمسائل العظيمة فحَسْبُ، بل المطلوبُ من العَبد لزومُ العلم المُفصَّلِ والعدل المُفصَّلِ في جميع شؤونه صغيرها وكبيرها، كما يوضِّحه كلامٌ جميلٌ لشيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع فتاويه» (38/14) حيث يقول: «والإنسانُ خُلقَ ظَلومًا جهولاً؛ فالأصلُ فيه عدمُ العلم وميلُه إلى ما يهوَاه منَ الشَّرِّ، فيحتَاجُ دائمًا إلى علم مُفَصَّلٍ يزولُ به جهلُه، وعدلٍ في محبَّته وبغضه، ورضَاه وغضَبه، وفعله وتركه، وإعطائه ومنعه، وأكله وشربه، ونومه ويقظته، فكلُّ ما يقولُه ويعمَلُه يحتاجُ فيه إلى علم يُنافي جهلَه، وعدلٍ يُنافي ظُلمَه؛ فإن لم يَمُنَّ اللّهُ عليه بالعلم المُفصَّل، والعَدل المُفصَّل كانَ فيه مِنَ الجَهل والظُّلم ما يخرجُ به عَن الصِّراط المستَقيم، وقد قال تعالى لنبيِّه ﷺ بعد صُلح الحُديبيَّة وبيعَة الرِّضوان: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢﴾ [سُورَةُ الفَتۡحِ]؛ فإذا كانَ هذا حاله في آخر حياته أو قريبًا منهَا؛ فكيفَ حال غيره!».

وليسَ منَ العَدل ولا الاعتدال السُّكوت على الباطِل، أو مُداهَنةُ أهل الانحراف والمخالفين ومداراتُهم، أو التَّغاضي عنهم بحجَّة أنَّ لهم حسنات أو مقامات في الخير أو نحو ذلك من الحُجَج الَّتي لا تَنْفُقُ في سوق العلم ولا تتماشى ومنهجَ أهل السُّنَّة والحديث؛ لأنَّ العدلَ هو وضعُ الأشياء في موضعها، وأعظَمُ الأشياء هو الحقُّ، فحَريٌّ أن يكونَ في نصابه ظاهرا جليًّا، حتَّى لا يلتَبسَ أمرُه على طالبيه، وحتَّى لا يغيب في معمعة الباطل.

وإنَّنا نطمَحُ كثيرًا أن نَرى يومًا أمَّتَنا الإسلاميَّةَ جمعَاء تعيشُ تحتَ ظلال العدل الوارفة، وتصدُر في جميع شؤونها عن العلم الصَّحيح، خاليةً ساحتُها من الضَّلالات والخرافات والأوهام والدَّجل، ويَدمغ فيها الحقُّ الباطلَ، وتُغلِّب العلمَ على الجهل والعَدلَ على الجَور؛ لتَزُولَ بذلك أسبابُ التَّفرُّق والبغضاء، ويحلَّ محلَّها التَّآخي والوفاق والاجتماع.

(3) «إغاثة اللّهفان» (137/2).
(4) «درء تعارض العقل والنقل» (409/8).



من مشكاة السنة

مساوئ الكذب وأضراره

د/كمال قالمي
أستاذ جامعي. السعودية

إنَّ اللهَ تعالى امتنّ على الإنسان بنعم عظيمة وآلاء جسيمة، ومن أعظمها نعمة اللّسان، ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [سورة البلد] ففضَّله على سائر الجوارح بالنُّطق والبيان، ومن شُكْر هذه النِّعمة استخدامُه فيما يُرضي خالقَه بأنواع القُرُبات وصنوف الطّاعات، ومن كفرانها استعمالُه فيما يُسخطُ الله تعالى بأنواع الموبقات وسائر الآفات الّتي تُودي بصاحبها إلى المُهلكات وتُكبُّه يومَ القيامة على وجهه في أسفل الدَّركات.

وإنَّ من شرِّ آفات اللسان الكذب الذي هو من أقبح السَّيِّئات وأذَمِّ الصِّفات.

قال الماوردي رَحِمَهُ اللهُ: «الكذبُ جِمَاعُ كُلِّ شَرٍّ، وأصْلُ كلِّ ذمٍّ لسوءِ عواقبه، وخُبْث نتائجه؛ لأنّه ينتج النَّميمةَ، والنَّميمةُ تُنتجُ البغضاءَ، والبغضاءُ تؤولُ إلى العداوة، وليس مع العداوة أمنٌ ولا راحة»[1].

(1) «أدب الدنيا والدين» (ص253).

والكذب منهيٌّ عنه شرعًا ومُستَقْبَحٌ طبعًا ومُستَهْجَنٌ عُرفًا، كان أهلُ الجاهليَّة الأولى يستقبحونه ويرَوْنه خِزْيًا وعارًا، وكان أحدهم يستحي أن تُنسَبَ إليه كَذبةٌ واحدةٌ تُلطِّخُ سُمعَتَه وتُدنِّسَ شرفَه، كما جاء في «الصَّحيحين» من قصَّة أبي سفيان رضي الله عنه -قبل إسلامه- مع هرقل مَلِك الرُّوم حينما سأله عن النَّبيِّ ﷺ فقال أبو سفيان: «فوالله، لولا الحياءُ من أن يَأْثِرُوا عليَّ كَذِبًا لكذبتُ عنه»، رغم أنَّه كان يكنُّ عداوةً شديدةً للنَّبيِّ ﷺ آنذاك.

إذا كان هذا شأن الكذب عند أهل الجاهليَّة؛ فإنَّ الإسلامَ لم يزدْه إلاَّ بُغضًا ومَقْتًا؛ ولذلك لم يكن خُلُقٌ أبغض إلى رَسُولِ الله ﷺ وأصحابه الكرام من الكذب، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «مَا كَانَ خُلُقٌ أَبْغَضَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنَ الكَذِبِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُحَدِّثُ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ بالكِذْبَةِ فَمَا يَزَالُ فِي نَفْسِه حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّهُ قَدْ أَحْدَثَ مِنْهَا تَوْبَةً» وفي لفظ: «...أَبْغَضَ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ»، رواه عبد الرَّزَّاق ومن طريقه أحمد، وابنُ حبَّان، والبزَّار، وصحَّحه الألباني[2]، وصحَّ عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنَّه كان يقول: «المُؤْمِنُ يُطْبَعُ عَلَى الخِلَالِ كُلِّهَا غَيْرِ الخِيَانَةِ وَالكَذِبِ» رواه ابن أبي شيبة[3].

ولكن إذا تأمَّلْنَا مُجتَمَعاتنا اليومَ نرى ونسمع العَجَبَ من فُشُوِّ الكَذِب وانتشارِه، حتى طغى على حياة النَّاس في أقوالهم وأفعالهم وسائر معاملاتهم، والله المستعان.

■■■

وقد تواترت الأحاديث النَّبويَّةُ في التَّحذير من الكذب والزَّجر عنه وبيان خُطورَته في الدَّارَيْن، وفيما يلي جملةٌ منها تذكرة وموعظة لنفسي ولمن شاء الله من القرَّاء:

(2) «مُصنَّف عبد الرَّزَّاق» (20195)، «مسند أحمد» (25183)، «صحيح ابنُ حبَّان» (5736)، «مسند البزَّار» (208/18) (203)، «صحيح التَّرغيب» (2941)، و«السِّلسلة الصَّحيحة» (2052).

(3) «مُصنَّف ابن أبي شيبة» (26117)، ويروى مرفوعا ولا يصح كما وضَّحه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «السِّلسلة الضعيفة» (3215).

الكذب من خصال المنافقين

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ» متَّفق عليه[4].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فيه كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فيه خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فيه خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» متَّفق عليه[5].

قال النووي رحمه الله: «معناه: أنَّ هذه الخصال خصالُ نفاق، وصاحبها شبيهٌ بالمنافقين في هذه الخصال ومُتخلِّقٌ بأخلاقهم؛ فإنَّ النِّفاقَ: هو إظهار ما يبطن خلافَه، وهذا المعنى موجود في صاحب هذه الخصال... ولم يُرد النَّبيُّ بهذا أنَّه منافق نفاقَ الكفَّار المُخلَّدين في الدَّرْك الأسفل من النَّار، وقولُه ﷺ: «كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا» معناه شديدُ الشَّبَه بالمنافقين بسبب هذه الخصال، قال بعضُ العلماء: وهذا فيمن كانت هذه الخصال غالبةً عليه، فأمَّا من يندُرُ ذلك منه فليس داخلًا فيه، فهذا هو المختار في معنى الحديث»[6].

التَّعوُّد على الكذب يجرُّ صاحبَه إلى ركوب المعاصي والآثام الَّتي تُوصلُه إلى النَّار

عن عبدالله بنِ مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «عَلَيْكُمْ بالصِّدْقِ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ. وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ؛ فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا» متفق عليه، واللَّفظ لمسلم[7].

قال النَّووي: «قال العلماء: هذا فيه حثٌّ على تحرِّي الصِّدق وهو قصده والاعتناء به، وعلى التَّحذير من الكذب والتَّساهُل فيه؛ فإنَّه إذا تساهل فيه كثُر منه فعُرِفَ به وكَتَبَه الله لمبالغته صدِّيقًا إن اعتاده، أو كذَّابًا إن اعتاده»[8].

نشر الكذب في الآفاق من أسباب عذاب القبر إلى يوم القيامة

عن سَمُرَةَ بن جُنْدُب رضي الله عنه، قال: كَانَ النَّبيُّ ﷺ إِذَا صَلَّى صَلاَةً، أَقْبَلَ عَلَيْنَا بوَجْهه، فَقَالَ: «مَنْ رَأَى منْكُمُ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا؟» قَالَ: فَإِنْ رَأَى أَحَدٌ قَصَّهَا، فَيَقُولُ: «مَا شَاءَ اللَّهُ»، فَسَأَلَنَا يَوْمًا، فَقَالَ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ منْكُمْ رُؤْيَا؟» قُلْنَا: لاَ، قَالَ: «لَكنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَاني، فَأَخَذَا بيَدي، فَأَخْرَجَاني إِلَى الأَرْضِ المُقَدَّسَة، فَإِذَا رَجُلٌ جَالسٌ، وَرَجُلٌ قَائمٌ، بيَده كَلُّوبٌ منْ حَديد، يُدْخلُهُ في شدْقه حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ، ثُمَّ يَفْعَلُ بشدْقه الآخَر مثْلَ ذَلكَ، وَيَلْتَئمُ شدْقُهُ هَذَا، فَيَعُودُ فَيَصْنَعُ مثْلَهُ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ قَالاَ: انْطَلقْ» وجاء في آخره: «قُلْتُ: طَوَّفْتُمَاني اللَّيْلَةَ، فَأَخْبرَاني عَمَّا رَأَيْتُ، قَالاَ: نَعَمْ، أَمَّا الَّذي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شدْقُهُ، فَكَذَّابٌ يُحَدِّثُ بالْكَذْبَة، فَتُحْمَلُ عَنْهُ، حَتَّى تَبْلُغَ الآفَاقَ، فَيُصْنَعُ به إِلَى يَوْم القيَامَة» الحديث رواه البخاري[9].

قال ابن أبي جمرة: «إذا كان هكذا من حين موته إلى يوم القيامة، فكيف حاله يوم القيامة؟!»[10].

ألا فليَتَّق اللهَ امرُؤٌ في هذا الزَّمان أن يَفتَريَ الأقوالَ والإشاعات وينشرها في وسائل الإعلام والاتِّصالات الحديثة فتبلغ الآفاق بلمسة زرّ.

الكذب سبب لقلق النَّفس واضطرابها

عن الحسن بن علي رضي الله عنهما، قال: «حفظْتُ من رسول الله ﷺ: «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يَرِيبُكَ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ وَإِنَّ الكَذِبَ رِيبَةٌ» رواه الإمام أحمد، والتِّرمذي وصحَّحه[11].

ولذلك ترى الكاذب قَلقًا خَائفًا من أن يَفتَضحَ أمرُه وينكشف كَذِبُه.

الكذب يجعل من التُّجَّار فجَّارًا

عن عبدالرَّحمن بن شبْل رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ التُّجَّارَ هُمُ الفُجَّارُ» قال: قيلَ: يَا رَسُولَ الله، أَوَلَيْسَ قَدْ أَحَلَّ اللهُ البَيْعَ؟ قال: «بَلَى، وَلَكنَّهُمْ يُحَدِّثُونَ فَيَكْذبُونَ، وَيَحْلفُونَ وَيَأْثَمُونَ» رواه أحمد، والحاكم وصحّح إسناده، ووافقه الألباني[12].

وعن رفاعة رضي الله عنه أَنَّهُ خَرَجَ مَعَ

---

(4) البخاري (33)، ومسلم (59).
(5) البخاري (34)، ومسلم (58).
(6) «شرح صحيح مسلم» (47/2).
(7) البخاري (6094)، ومسلم(2607).
(8) «شرح صحيح مسلم» (160/16).
(9) «صحيح البخاري» (1386).
(10) «بهجة النُّفوس» (122/2).
(11) «المسند» (1723)، و«جامع التِّرمذي» (2518).
(12) «المسند» (15530)، «المستدرك»(6/2ـ7)، «الصحيحة» (366).

النَّبيُّ ﷺ إلَى المُصَلَّى فَرَأَى النَّاسَ يَتَبَايَعُونَ فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ» فَاسْتَجَابُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَفَعُوا أَعْنَاقَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ إِلَيْهِ، فَقَالَ: «إِنَّ التُّجَّارَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ فُجَّارًا إِلاَّ مَنِ اتَّقَى اللَّهَ وَبَرَّ وَصَدَقَ» رواه الترمذي وصحّحه، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم وصحح إسناده، وحسّنه الألباني بالشاهد السابق[13].

قال الطِّيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمن تحرَّى الصِّدقَ والأمانةَ في تجارته كان في زُمرةِ الأبرار من النَّبيِّين والصِّدِّيقين، ومن توخّى خلافهما كان في قرن الفُجَّارِ من الفَسَقةِ والعاصين»[14].

الكذب يمحق بركة البيع والشِّراء

عن حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «البَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا - أَوْ قَالَ حَتَّى يَتَفَرَّقَا - فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا» مُتَّفقٌ عليه[15].

قال العيني رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «وكَذَبا» أي وكذب البائع في وصف سلعته، والمشتري في وصف ثمنه، قوله: «مُحِقَتْ» من المحق وهو النُّقصان وذهابُ البَرَكَة، وقيل: هو أن يذهب الشَّيءُ كلُّه حتَّى لا يُرَى منه أثَرٌ، ومنه ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ [البقرة: 276] أي يستأْصِلُه ويذهب ببركته ويهلك المال الَّذي يدخل فيه، والمراد يمحق بركة البيعِ ما يقصده التَّاجرُ من الزِّيادة والنَّماء، فيُعَامَلُ بنَقيضِ ما قصدَه، وعلَّق الشَّارعُ حصولَ البركة لهما بشرط الصِّدق والتَّبيين، والمَحْقُ إن وُجِدَ ضِدُّهما وهو الكتم والكذب»[16].

الوعيد الشَّديد لمن حلف كذبًا من أجل إنفاق سلعته وترويجها

عن أبي ذَرٍّ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» قال: فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلاَثَ مِرَارٍ. قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «المُسْبِلُ، وَالمَنَّانُ، وَالمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الكَاذِبِ» رواه مسلم[17].

وهذه الأيمان الفاجرة صارت ظاهرةً في أسواقنا اليوم، فتجد التَّاجر يحلف بالأيمان المغلَّظة بأنَّه يبيع بضاعته برأس المال، أو اشتراها بسعر قريب من سعر البيع، وأُعطي فيها سعرًا مُعيَّنًا وهو لم يُعطَه، أو غير ذلك من الصُّور والحيَل الَّتي يُروِّج بها بضاعته، فيبيع دينه بدُرَيْهِمَات معدودات، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 77].

الحلف كذبًا لاقتطاع مال المسلم من أكبر كبائر الذُّنوب

عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الكَبَائِرُ؟ قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ»، قال: ثُمَّ مَاذَا؟ قال: «ثُمَّ عُقُوقُ الوَالِدَيْنِ»، قَالَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «اليَمِينُ الغَمُوسُ»، قلتُ: وما اليمينُ الغَمُوسُ؟ قَالَ: «الَّذِي يَقْتَطِعُ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا كَاذِبٌ» رواه البخاري[18].

قال الأُبِّي رَحِمَهُ اللَّهُ: «عظمت هذه اليمين لأنَّها غَمُوس، والغموس من أكبر الكبائر الموبقة مع ما فيها من تغيير حكم الشَّرع في الظَّاهر من استحلال الحرام بها وإظهارها الباطل في صورة الحقِّ»[19].

وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِه فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الجَنَّةَ»، فقال له رجلٌ: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسولَ اللَّه؟ قال: «وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ» رواه مسلم[20].

قال النَّووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفيه بيان غلظ تحريم حقوق المسلمين، وأنَّه لا فرق بين قليل الحقِّ وكثيره؛ لقوله ﷺ: «وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ»[21].

تغليظ العقوبة في حقِّ من يكذب في الرُّؤى وحكاية المنامات

عن ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلُمٍ لَمْ يَرَهُ كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَنْ يَفْعَلَ» رواه البخاري[22].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «مِنْ أَفْرَى الفِرَى أَنْ يُرِيَ عَيْنَيْهِ مَا لَمْ تَرَ» رواه البخاري[23].

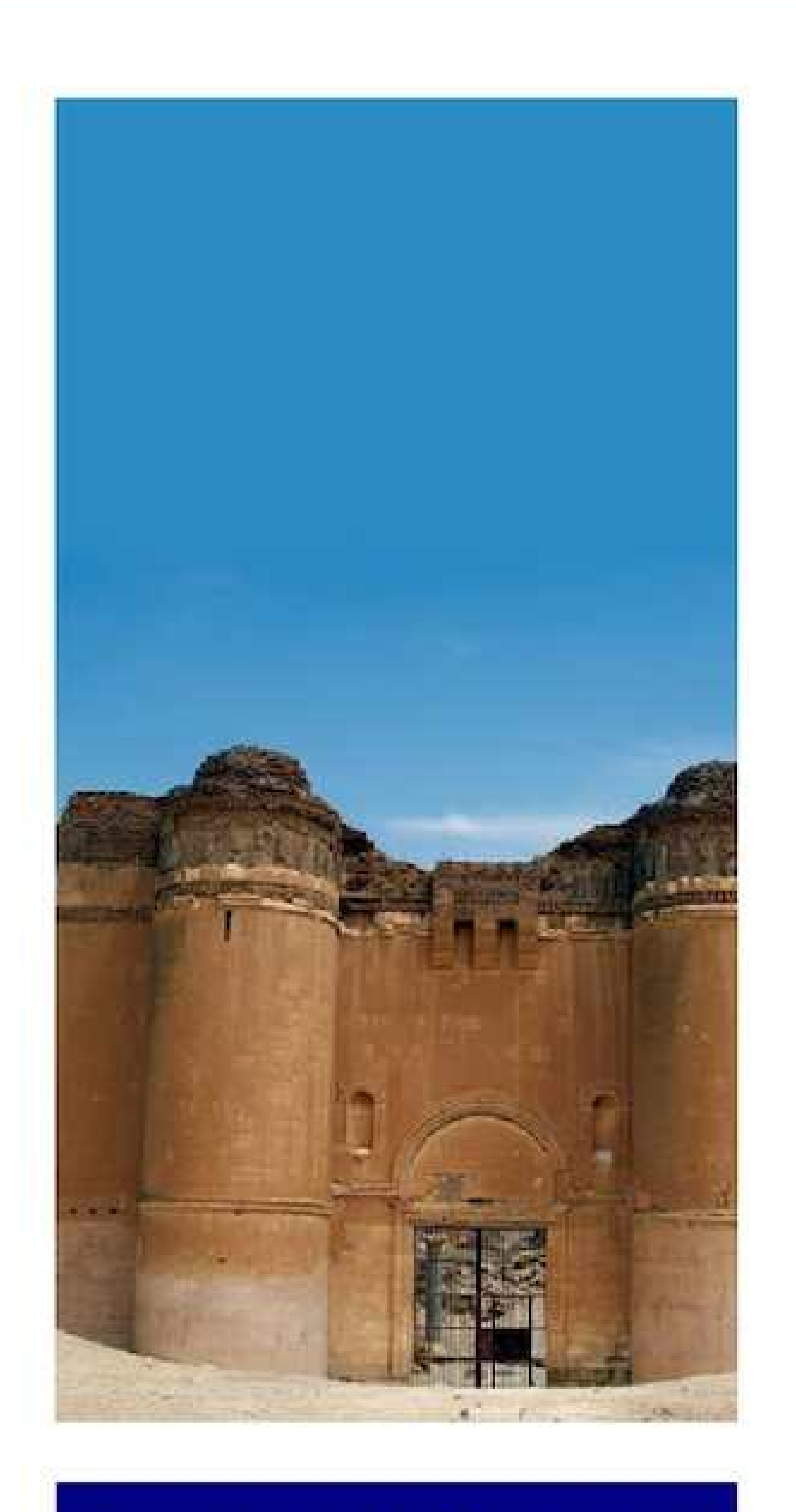
(13) «جامع التِّرمذي» (1210)، «سنن ابن ماجه» (2161)، «صحيح ابن حبان» (4910)، «المستدرك» (2/6)، «الصحيحة» (994).
(14) «شرح مشكاة المصابيح» (7/2119).
(15) البخاري (2079)، ومسلم (1532).
(16) «عمدة القاري» (11/195).
(17) «صحيح مسلم» (106).
(18) «صحيح البخاري» (6920).
(19) «إكمال إكمال المعلم» (1/406).
(20) «صحيح مسلم» (137).
(21) «شرح صحيح مسلم» (2/162).
(22) «صحيح البخاري» (7042).
(23) «صحيح البخاري» (7043).

قوله: «أَفْرَى الفِرَى» يعني: أكذب الكذب، والفرية: الكذبة العظيمة الَّتي يُتعَجَّبُ منها[24].

قال محمَّد بن جرير الطَّبري: «إن قال قائل: ما وجه خصوص النَّبيِّ عليه السلام الكاذبَ في رؤياه بما خصَّه به من تكليف العقد بين طرفي شعرتين يوم القيامة؟ وهل الكاذب في رؤياه إلاَّ كالكاذب في اليقظة؟ وقد يكون الكذب في اليقظة أعظم في الجرم إذا كان شهادة توجب على المشهود عليه بها حدًّا أو قتلا أو مالا يُؤخَذ منه، وليس ذلك في كذبه في منامه؛ لأنَّ ضررَ ذلك عليه في منامه وحده دون غيره، قيل له: اختلفت حالتُهما في كذبهما، فكان الكاذبُ على عَيْنَيْه في منامه أحقَّ بأعظم النَّكالَيْن؛ وذلك لتظاهر الأخبار عن النَّبيِّ عليه السلام أنَّ الرُّؤيا الصَّادقةَ جزءٌ من ستَّة وأربعين جزءًا من النُّبوَّة، والنُّبوَّةُ لا تكون إلاَّ وحيًا من الله، فكان معلومًا بذلك أنَّ الكاذب في نومه كاذبٌ على الله أنَّه أراه ما لم يَرَ، والكاذب على الله أعظم فريةً وأولى بعظيم العقوبة من الكاذب على نفسه، بما أتلف به حقًّا لغيره أو أوجبه عليه، وبذلك نطق مُحكَمُ التَّنزيل فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: 18]، فأبان ذلك صحَّةَ ما قُلنَاه أنَّ الكذبَ في الرُّؤيا ليس كالكذب في اليقظة؛ لأنَّ أحدهما كذب على الله والآخر كذب على المخلوقين»[25].

(24) «شرح ابن بطَّال على صحيح البخاري» (556/9).

(25) المصدر السَّابق.



شناعة الكذب إذا كان من ملك أو حاكم

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ».

والمعصية هي معصية من حيث عدمُ الإعذار باقترافها؛ إذ كلُّ مُكلَّف مُؤاخَذٌ بارتكابها لا فرق بين حاكم ومحكوم، ولا غنيٍّ وفقير، ولا شيخ وشابٍّ، ولكن يُستعظم وقوعُها، ويتضاعف إثمُها وعقابُها ممَّنْ تَضْعُف عندهم دواعيها وأسبابُها كهؤلاء الثَّلاثة المذكورين في الحديث.

قال القاضي عياض رحمه الله: «خُصَّ هؤلاء الثَّلاثة بأليم العذاب وعقوبة الإبعاد لالتزام كلٍّ واحدٍ منهم المعصيةَ الَّتي ذكر على بُعدها منه، وعدم ضرورته إليها، وضعف دواعيها عنده، وإن كان لا يُعذَر أحدٌ بذنب، ولا في معصيته الله تعالى، لكن لمَّا لم تَدْعُهم إلى هذه المعاصي ضرائر مزعجة، ولا دواع معتادة، ولا حملتهم عليها أسبابٌ لازمةٌ، أشبه إقدامُهم عليها المعاندةَ، والاستخفاف بحقِّ المعبود، محضًا، وقصد معصيته لا لغير معصيته؛ فإنَّ الشَّيخَ مع كمال عقله، وإعذار الله له في عمره، وكثرة معرفته بطول ما مَرَّ عليه من زمنه، وضعف أسباب الجماع، والشَّهوة للنِّساء، واختلال دواعيه لذلك، وبَرد مِزاحه، وإخلاق جديده، وعنده من ذلك ما يُريحه من دواعي الحلال في هذا الباب من ذاته، ويخلى سرهُ منه بطبيعته، فكيف بالزِّنا الحرام؟! إذ دواعي ذلك الكبرى الشَّبابُ، وحرارةُ الغريزة، وقلَّة المعرفة، وغلبة الشَّهوة بضعف العقل، وصِغَرِ السِّنِّ.

وكذلك الإمامُ لا يخشى من أحدٍ من رعيَّته، ولا يحتاج إلى مداهنته ومصانعته، إذ إنَّما يُداهِنُ الإنسان ويصانع بالكذب وشبهه مَنْ يَحذَرُه ويخشى مُعاقَبَتَه أو أذاه ومُعاتَبَتَه، أو بطلب عنده بذلك منزلة أو منفعة، فهو غنيٌّ عن الكذب جملةً.

وكذلك العائل الفقير، قد عُدِمَ بعدمه المال ولعاعة الدُّنيا سبب الفخر والخيلاء، والاستكبار عن القرناء، إذ إنَّما يكون ذلك بأسباب الدُّنيا والظُّهورِ فيها وحاجات أهلها إليه، فإذا لم يكن عنده أسبابُها فلماذا يستكبر ويستحقر غيره؟!...»[26].

(26) «إكمال المعلم بفوائد مسلم» (383. 384).

الوَيْل لمن يكذب من أجل أن يُضحك الناس

عن معاوية بن حَيْدة القشيري رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُول: «وَيْلٌ للَّذى يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ وَيْلٌ لَهُ وَيْلٌ لَهُ» رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي وحسّنه، والحاكم، وحسنه الألباني[27].

قال المناويُّ رحمه الله: «كرّره إيذانًا بشدَّة هلكته؛ وذلك لأنَّ الكذبَ وحده رأسُ كلِّ مذموم، وجِمَاعُ كلِّ فضيحة، فإذا انضمَّ إليه استجلابُ الضّحك الذي يميت القلب ويجلب النسيان ويورث الرُّعونةَ كان أقْبحَ القبائح»[28].

فإن انضاف إلى ذلك الغيبة والسُّخرية من عباد الله، فذلك غاية القبح ونهاية الفحش. أمّا إذا اشتمل على الاستهزاء بالله ورسوله أو بشعيرة من شعائر الإسلام فذلك الكفر البواح والنفاق الصُّراح، قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [سورة التوبة].

فهؤلاء المنافقون زعموا أنهم كانوا يمزحون ويلعبون ولم يكونوا جادّين في استهزائهم وتهكمهم برسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، فلم يقبل الله تعالى عذرهم بل حكم عليهم بالردّة والخروج من الملّة.

قال الشيخ السّعدي رحمه الله عند تفسيره لهذه الآيات: «إنّ الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفرٌ مخرجٌ عن الدِّين؛ لأنّ أصل الدِّين مبنيٌّ على تعظيم الله وتعظيم دينه ورسله، والاستهزاء بشيء من ذلك منافٍ لهذا الأصل ومناقض له أشدّ المناقضة».

وهذا الأمر في وقتنا الحاضر استفحل داؤه واستشرى بلاؤُه لا سيما في وسط الممثّلين والفُكاهيّين إلاّ من رحم الله، فليحذر المسلم النّاصح لنفسه الذي يريد لها النجاة من سخط الله والفوز برضاه من هذا المنزلق الخطير والشَّرِّ المستطير.

لا يصلح الكذب ولو مُزاحًا

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فى رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فى وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبِبَيْتٍ فى أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ». رواه أبو داود، والبيهقي في كتاب «الآداب»، وحسَّنه الألباني[29].

وفي الحديث التَّرغيب بهذا الثّواب العظيم والموعود الكريم لمن ترك الكذبَ ولو على سبيل المزاح؛ لأنَّ بعضَ النَّاس يَتحرَّى الصِّدقَ ويَجتهدُ في تجنُّب الكذب طاقتَه، غير أنَّه في مجالس السَّمر وأوقات السَّهر يضعف فتراه ينبسط ويطلق العنان للسانه في المزح؛ بغرض إضفاء السُّرور والمَرَح، فيُغضبُ جَليسَه ويجرح مشاعرَ أَنيسه بكلمات تَحملُ في طَيَّاتها الاستهزاءَ والسُّخريَةَ، ثمَّ يتدارك الموقفَ بأنَّه كان يَمزَحُ بقصد التَّرويح والتَّسلية، فيتَّخذُ من المزاح سُلَّمًا للاحتقار، ومَخرَجًا للاعتذار.

والحقُّ أنَّ الكذبَ هو الكذبُ لا فرق بين أسوده وأبيضه ولا بين جدِّه وهَزله، فقد صحَّ عن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّه قال: «لاَ يَصْلُحُ الكَذِبُ في جِدٍّ وَلاَ هَزْلٍ، ثُمَّ تَلاَ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: 119]» رواه ابنُ أبي شيبة، والبخاري في «الأدب المفرد»[30].

وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ المزاحَ أمرٌ محبوب طبعًا لحاجة النَّاس إليه للتَّرويح عن نفوسهم ودفع السَّآمة والمَلَل عنها، وهو أيضًا مرغوبٌ شرعًا لكنَّه مُنضَبِطٌ بشروط وقيود.

وكان سيِّدُ الخلق صلواتُ ربِّي وسلامُه عليه يداعب أصحابَه . أحيانًا . ويمازحهم ويضاحكهم ويُدخلُ السُّرورَ عليهم ولكن لا يقول إلاَّ حقًّا وصدقًا.

شهادة الزُّور من أَفْحَشِ الكذب وأَشْنَعِه

عن أبي بكرة رضي الله عنه، قال: قال النَّبِيُّ ﷺ: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟» قلنا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّه، قال: «الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ». وَكَانَ مُتَّكِئًا فجلس. فقال: «أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَلاَ وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ»، قال: فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى قُلْتُ: لاَ يَسْكُتُ»، متفق عليه[31].

قال أبو العبَّاس القرطبي رحمه الله: «شَهَادَةُ الزُّورِ: هي الشَّهادةُ بالكذب

(27) «المسند» (20046)، «سنن أبي داود» (4990)، «جامع الترمذي» (2315)، «المستدرك» (46/1)، «صحيح الجامع» (7136).

(28) «فيض القدير» (477/6).

(29) «سنن أبي داود» (4800)، «الآداب للبيهقي» (322)، «الصَّحيحة» (273).

(30) «مصنف ابن أبي شيبة» (26114)، «الأدب المفرد» (387)، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد».

(31) «صحيح البخاري» (5976)، «صحيح مسلم» (87).

والباطل، وإنَّما كانتْ مِنْ أكبر الكبائر؛ لأنَّها يتوصَّلُ بها إلى إتلاف النُّفوس، والأموال، وتحليل ما حرَّم الله تعالى، وتحريم ما أَحَلَّ، فلا شيءَ من الكبائر أعظمُ ضررًا، ولا أكثرُ فسادًا منها بعد الشِّرك»[32].

ولعلَّ الحكمةَ من اهتمام النَّبيِّ ﷺ بها في هذا الحديث أكثر من الشِّرك؛ لأنَّها كما قال ابنُ دقيق العيد رحمه الله: «أسهلُ وقوعًا على النَّاس، والتَّهاون بها أكثر ومفسدتها أيسر وقوعًا؛ لأنَّ الشِّركَ ينبو عنه المسلمُ، والعقوقُ ينبو عنه الطَّبعُ»[33].

وهي أيضًا تدخل في كثير من معاملات النَّاس وليست محصورةً في الشَّهادات الَّتي يُدلَى بها في المحاكم، فالمسؤول الَّذي يَكتُبُ تقريرًا حسنًا عن مُوظَّفه أو سيِّئًا وهو ليس كذلك فهي شهادةُ الزُّور، والمعلِّم الَّذي يُسلِّم تلميذَه شهادةً وهو لا يَستحقُّها فهي شهادةُ الزُّور، والشَّيخُ الَّذي يُزكِّي طالبَ علم أو يُجرِّحُه وهو على خلاف ذلك فهي شهادةُ الزُّور، وعلى ذلك فقِسْ.

التَّغليظ والتَّشديد في الكذب على رسول الله ﷺ

عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ النَّبيَّ ﷺ يقول: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» متَّفق عليه[34].

(32) «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (282/1).
(33) ينظر «فتح الباري» (411/10).
(34) «صحيح البخاري» (1291)، «صحيح مسلم» (المقدمة.4).

قال ابنُ حجر رحمه الله: «والحكمة في التَّشديد في الكذب على النَّبيِّ ﷺ واضح؛ فإنَّه إنَّما يُخبرُ عن الله، فمن كذَبَ عليه كذَبَ على الله عزَّ وجلَّ، وقد اشتدَّ النَّكيرُ على مَنْ كذب على الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ [الأنعام: 21] فسوَّى بين من كذب عليه وبين الكافر، وقال: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: 60] والآيات في ذلك مُتعدِّدةٌ»[35].

وعن سَمُرَةَ بن جُنْدُب، والمغيرة ابن شعبة رضي الله عنهما قالا: قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يُرَى أَنَّهُ كَذِبٌ فَهُوَ أَحَدُ الكَاذِبِينَ» رواه مسلم في مقدِّمة «صحيحه»[36].

قال القرطبي رحمه الله: «يُفيدُ الحديثُ التَّحذيرَ عن أن يُحدِّثَ أحدٌ عن رسول الله ﷺ إلاَّ بما تَحقَّق صدقُه علمًا أو ظنًّا، إلاَّ أن يُحدِّثَ بذلك على جهة إظهار الكذب؛ فإنَّه لا يتناوله الحديث»[37].

وقال النَّووي رحمه الله: «يحرم روايةُ الحديث الموضوع، على من عرف كونَه موضوعًا أو غلب على ظنِّه وضعُه، فمن روى حديثًا عَلِمَ أو ظنَّ وَضْعَه ولم يُبيِّنْ حالَ روايته وَضْعَه فهو داخلٌ في هذا الوعيد مُندرجٌ في جملة الكاذِبين على رسول الله ﷺ»[38].

وما أكثر الأحاديث المصنوعة والأخبار الموضوعة لولا أنَّ اللهَ قيَّضَ لها من أهل العلم ـ قديمًا وحديثًا ـ مَنْ يبيِّن صحيحها من سقيمها، ويميِّز مقبولَها

(35) «فتح الباري» (541/6).
(36) «صحيح مسلم» (المقدمة ـ 1).
(37) «المفهم» (112/1).
(38) «شرح صحيح مسلم» (71/1).

من مردودها، لراجت وانطلت على النَّاس.

ولا سيَّما في هذه الأعصار المُتأخِّرة، كما قال ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ يَأْتُونَكُمْ مِنَ الأَحَادِيثِ بِمَا لَمْ تَسْمَعُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُمْ لاَ يُضِلُّونَكُمْ وَلاَ يَفْتِنُونَكُمْ» رواه مسلم في مقدِّمة «صحيحه»[39].

وعليه؛ فليحذرِ الَّذين ينشرون الأحاديثَ عبر الجوالات والإنترنت وغيرها إلاَّ بعد التَّثبُّت والتَّأكُّد من ثبوتها والعلم بصحَّتها، فربَّما ينشر أحدهم ـ ولو بحسن قصد ـ حديثًا مكذوبًا أو ضعيفًا، فيَتلقَّفُه النَّاسُ ويتناقلُه بعضُهم عن بعض فينتشر انتشارَ النَّار في الهشيم، فيتحمَّلُ وِزرَه ووزرَ من عمل به إلى يوم القيامة، والله المستعان.

أسأل الله تعالى أن يُطهِّر قلوبَنا وألسنَتَنا من الكذب والنِّفاق ومساوئ الفعال، وأن يرزقنا الصِّدقَ في الأقوال والأعمال وجميلَ الخصال.

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(39) «صحيح مسلم» (المقدمة ـ 7) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.





أصول الشِّرك

عند الإمام ابن القيِّم رحمه الله



محمد كربوز

إمام أستاذ. الجزائر

لقد تقـرّر بأنَّ أعظـم الذُّنوب عند الله هو الإشـراكُ بـه، فقال سـبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ١٣﴾ [لقمان]، وقـال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [النساء].

ولهذا كان بيان حقيقة هذا الشِّـرك وبيـان أصـوله أعظـمَ واجب علـى ورثة الأنبيـاء والدُّعـاة إلى ديـن الله، ومـن العلمـاء الَّذيـن بيَّنوا ذلك غايـة البيان وأوضـحوه أتمَّ الإيضـاح الإمام أبو عبد الله محمَّد بن أبي بكر بن أيُّوب المعروف بابـن قيِّـم الجوزيـة، فقـد بـيَّن حقيقة الشِّـرك بيانًا تامًّـا شـافيًا[1]، كما ذكر في ثنايـا كتبه أصـولَه، وذلك لأنَّ معرفة أصـول الأشـياء من أعظم ما يعين على إدراك حقائقهـا، ومـن أعظـم ما يعين كذلـك على التَّوصُّـل إلى إبطالها وسـدِّ الطُّرق إليها إن كانت شرًّا.

ولهذا أحببت في هذا المقال أن أقرِّب للقـرَّاء الكـرام ما وقفت عليـه من تلك الأصول، وهي كالآتي:

التَّعطيل

■ وهو أربعةُ أنواع:

☐ تعطيل المخلوقات عن خالقها.

☐ تعطيـل الله تعـالى عـن صـفات كماله.

☐ تعطيـل الخلـق عـن الحـقِّ الذي خُلقـوا لأجلـه وهـو عبـادة الله وحده لا شريك له.

☐ تعطيل الشَّرائع.

ذكر ابنُ القيِّم هذه الأنواعَ عند حديثه عن أقسام الفلاسفة وعقائدِهم فقال:

«وبالجملـة: فملاحدتُهـم هـم أهـلُ التَّعطيل المحض، فإنَّهم عطَّلوا الشَّـرائعَ، وعطَّلوا المصنـوعَ عـن الصَّـانع، وعطَّلوا الصَّـانعَ عن صفات كماله، وعطَّلوا العالَمَ عن الحقِّ الَّذي خَلَقَـهُ له ربُّه، فعطَّلوه عن مبدئـه ومعـاده، وعـن فاعله وغايتـه، ثمَّ سـرى هذا الدَّاءُ منهم في الأمم، وفي فرق المعطِّلة»[2].

وذكـر أنَّ التَّعطيـل أصـلٌ لـكلِّ بلاء وشـرٍّ، فعنـد حديثه عـن فِـرق الدَّهريَّة المعطِّلين للمصنوعات عن صانعها قال:

«فداءُ التَّعطيل، وداءُ الإشراك، وداءُ مخالفـة الرَّسـول وجحدِ ما جـاء به، أو شـيءٍ منه: هو أصـلُ بلاءِ العالم، ومَنبعُ كلِّ شرٍّ، وأسـاسُ كلِّ باطل، فليست فرقةٌ من فرق أهـل الإلحاد والباطل والبدع إلاَّ

(1) انظـر في ذلـك: «الـدَّاء والـدَّواء» (298. 318) و«مدارج السَّالكين» (2/911. 930).

(2) «إغاثـة اللَّهفـان» (2/1033. 1034)، وانظـر: «الدَّاء والدَّواء» (ص299).

وقولُها مُشتقٌّ من هذه الأصول الثَّلاثة، أو من بعضها.

فإن تَنْجُ منها تَنْجُ من ذي عظيمة
وإلا فإنّي لا أظنُّك ناجيًا»[3]

ومن البلاء والشَّرِّ والباطل الَّذي أصله التَّعطيلُ: الإشراكُ بالله تعالى.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالمعطِّلُ شَرٌّ من المشرك، فإنَّه لا يَستوي إنكارُ صفات الملك وحقيقة مُلكه والطَّعنُ في أوصافه هو، والتَّشريكُ بينَهُ وبَين غيره في الملك، فالمعطِّلُونَ أعداءُ الرُّسُل بالذَّات، بل كلُّ شرك في العالَم فأصلُهُ التَّعطيلُ، فإنَّهُ لولا تَعطيلُ كماله ـ أو بعضه ـ وظَنُّ السَّوْءِ به: لَمَا أُشرك به، كما قال إمامُ الحُنفاء وأهل التَّوحيد لقومه: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧﴾ [الصَّافَّات]... والمقصود: أنَّ التَّعطيلَ مَبدأُ الشِّرك وأساسُهُ، فلا تجدُ مُعطِّلاً إلَّا وشركُهُ على حسَب تَعطيله، فمُستَقِلٌّ ومُستَكثِرٌ»[4].

وقد بيَّن ابنُ القيِّم وجهَ كون التَّعطيل أصلاً للشِّرك، فبَعْد أن ذكر أنَّ الرُّوحَ كلَّما كانت بكمال ربِّها وجماله وأوصافه أعرفَ كلَّما كانت لربِّها أحبَّ وأطوعَ، وأنَّ العائقَ عن النُّهوض بجدٍّ في طاعة الله تعالى وعبادته هو إمَّا الجهلُ بكماله سبحانه وجماله وجلاله وأوصافه، وإمَّا فسادُ الإرادة لتعلُّقها بغيره، قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وإذا عُرف هذا، فالرُّسلُ جاءوا بكمال الأمرَين على أتمِّ الوجوه، فإنَّهم ذكروا من صفات هذا الرَّبِّ الَّذي تألَهُه القلوبُ وتطمئنُّ إليه الأرواحُ ما يكون داعيًا إلى محبَّته، وأمروا النَّاس من توحيده وعبادته وحده لا شريك له بمَا إذا فعلوه أحبَّهم عليه، فجاءت النُّفاة المعارضون للوحي بعقولهم وآرائهم، فوقفوا في طريق الرُّسل وأتوا بما يضادُّ دعوتَهم، فنفَوا صفاته الَّتي تعرَّف بها إلى عباده، وجعلوا إثباتَها تجسيمًا وتشبيهًا، ووصفوه من السُّلوب والنَّفي بما حال بين القلوب وبين معرفته، وأكَّدوا ذلك بأنَّه لا يُحِبُّ ولا يُحَبُّ، ولا له وجهٌ يراه العابدون المحبُّون له يومَ القيامة، فضلاً عن أن يَحصُل لهم لذَّةٌ هناك بالنَّظر إليه، ولا يكلِّمُهم، ولا يخاطبُهم، ولا يسلِّمُ عليهم من فوقهم، فلمَّا استقرَّ هذا النَّفيُ في قلوبهم تعلقَّت بغيره من أصناف المحبوبات، فأشركت به في المحبَّة ولا بد، وكان أعظمُ الأسباب الحاملة لها على الشِّرك هو التَّعطيلَ، فانظر إلى تلازم الشِّرك والتَّعطيل وتصادُقهما وكونهما:

رضيعَي لبانٍ ثديَ أُمٍّ تقاسما
بأسحمَ داجٍ عَوضَ لا نتفرَّقُ»[5]

التَّشبيه والغلوُّ في المخلوق

المرادُ بالتَّشبيه هنا تشبيهُ المخلوق بالخالق سبحانه وتعالى، وإعطاؤه شيئًا من خصائص الإلهيَّة، كالتَّفرُّد بملك الضُّرِّ والنَّفع والعطاء والمنع والكمال المطلق من جميع الوجوه والعبوديَّة ونحو ذلك، فالغلوُّ في المخلوق الَّذي هو أصلٌ من أصول الشِّرك هو حقيقةُ التَّشبيه، قال ابن القيم:

«ومن أسباب عبادة الأصنام: الغلوُّ في المخلوق، وإعطاؤه فوق منزلته، حتَّى جُعل فيه حظٌّ من الإلهيَّة، وشبَّهوه بالله سبحانه، وهذا التَّشبيهُ الواقعُ في الأمم، الَّذي أبطله الله سبحانه، وبعث رسلَه، وأنزل كتبَه بإنكاره والرَّدِّ على أهله.

فهو سبحانه يَنفي، ويَنهى، أن يُجعل غيرُه مثلاً له، وندًّا له، وشبْهًا له، لا أن يُشبَّه هو بغيره، إذ ليس في الأمم المعروفة أُمَّةٌ جعلته سبحانه مثلاً لشيء من مخلوقاته، فجعلت المخلوقَ أصلاً وشبَّهت به الخالق، فهذا لا يُعرف في طائفة من طائفة بني آدم، وإنَّما الأوَّلُ هو المعروفُ في طوائف أهل الشِّرك، غلَوْا فيمن يُعظِّمونه، ويحبُّونه، حتَّى شبَّهوه بالخالق، وأعطَوه خصائصَ الإلهية، بل صرَّحوا أنَّه إلهٌ، وأنكروا جعلَ الآلهة إلهًا واحدًا»[6].

وقد جعل ابنُ القيِّم هذا التَّشبيهَ أصلاً من أصول الشِّرك فقال:

«وهذا التَّشبيهُ الَّذي أبطله الله سبحانه نفيًا ونهيًا: هو أصلُ شرك العالَم، وعبادة الأصنام: ولهذا نهى النَّبيُّ أن يَسجُدَ أحدٌ لمخلوق مثله أو يحلفَ بمخلوق مثله، أو يصلِّيَ إلى قبر، أو يتَّخذَ عليه مسجدًا، أو يُعلِّقَ عليه قنديلاً أو يقولَ القائلُ: ما شاء الله وشاء فلانٌ، ونحوَ ذلك، حَذرًا من هذا التَّشبيه الَّذي هو أصلُ الشِّرك»[7].

(3) «إغاثة اللَّهفان» (1017/2).
(4) «مدارج السَّالكين» (3618/5ـ3619)، وانظر: «الدَّاء والدَّواء» (ص299).
(5) انظر: «الصَّواعق المرسلة» (1353/4ـ1356).
(6) «إغاثة اللَّهفان» (978/2).
(7) «إغاثة اللَّهفان» (987/2).





التَّعلُّق بغير الله

إنَّ مفسدات القلب كثيرة من أعظمها تعلُّقه بغير الله تعالى، قال ابن القيم:

«المفسدُ الثَّالثُ من مُفسدات القلب: التَّعَلُّقُ بغير الله، وهذا أعظمُ مُفسداته على الإطلاق، فليس عليه أضرُّ من ذلك، ولا أقطعُ له عن الله وأحجبُ له عن مصالحه وسعادته منه، فإنَّه إذا تَعلَّقَ بغير الله وكلَهُ اللهُ إلى مَن تَعلَّقَ به، وخذلهُ من جهة ما تَعلَّق به، وفاتَهُ تَحصيلُ مَقصُوده منَ الله بتَعلُّقه بغيره، والتفاته إلى سواهُ، فلا على نصيبه من الله حصَل، ولا إلى ما أمَّلَه ممَّن تعلَّق به وصَل، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزًّا ٨١ كَلَّاۚ سَيَكۡفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمۡ وَيَكُونُونَ عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا ٨٢﴾ [سُورَةُ مَرۡيَمَ]، وَقالَ تَعالَى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ٧٤ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ ٧٥﴾ [سُورَةُ يسٓ]»[8].

فالتَّعلُّق بغير الله محبَّة وتعظيمًا وخوفًا ورجاءً وتوكُّلاً واستعانةً أَسَاسُ الشِّرك وَقاعدَتُهُ الَّتي بُنيَ عَلَيْهَا، ولا ينالُ صاحبه إلاَّ الذَّمّ والخسران ولا يحصد إلاَّ النَّدامة والخذلان، قَالَ تَعالَى: ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقۡعُدَ مَذۡمُومٗا مَّخۡذُولٗا ٢٢﴾ [سُورَةُ الإِسۡرَاءِ].

(8) «مدارج السَّالكين» (1175/2).

المحبَّة مع الله

المحبَّةُ مع الله (المحبَّةُ الشِّركيَّةُ) هي محبَّةُ العبوديَّة والتَّألُّه والموالاة المستلزمةُ للذُّل والخضوع والتَّعظيم وكمال الطَّاعة والإيثار على الغير المُتَّبعةُ بالخوف والرَّجاء والعبادة والدُّعاء.

قال ابن القيِّم:

«وأمَّا المحبَّةُ مع الله، فهي المحبَّةُ الشِّركيَّةُ، وهي كمحبَّة أهل الأنداد لأندادهم كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعَذَابِ ١٦٥﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ].

وأصلُ الشِّرك الَّذي لا يغفره اللهُ هو الشِّركُ في هذه المحبَّة، فإنَّ المشركين لم يزعُموا أنَّ آلهتَهم وأوثانَهم شاركت الربَّ سبحانه في خلق السَّموات والأرض، وإنَّما كان شركُهم بها من جهة محبَّتها مع الله، فوالَوْا عليها، وعادَوْا عليها وتألَّهوها، وقالوا هذه آلهةٌ صغارٌ تقرِّبُنا إلى الإله الأعظم، ففرقٌ بين محبَّة الله أصلاً، والمحبَّة له تبعًا، والمحبَّة معه شركًا، وعليك بتحقيق هذا الموضع فإنَّه مفرَقُ الطُّرق بين أهل التَّوحيد وأهل الشِّرك»[9].

وقد بيَّن ابنُ القيِّم حقيقةَ هذه المحبَّة الشِّركيَّة وضابطها فقال:

(9) «روضة المحبِّين» (409، 410).

«وأمَّا المحبَّةُ الخاصَّةُ الَّتي لا تصلحُ إلاَّ لله وحدَه ومتى أحبَّ العبدُ بها غيرَه كان شركًا لا يغفره الله، فهي محبَّةُ العبوديَّة المستلزمةُ للذُّلِّ والخضوع والتَّعظيم، وكمال الطَّاعة وإيثاره على غيره، فهذه المحبَّةُ لا يجوز تعلُّقها بغير الله أصلاً، وهي الَّتي سوَّى المشركون بين آلهتهم وبين الله فيها»[10].

الشَّفاعة الشِّركيَّة

■ **الشَّفاعة نوعان:**

الأولى: شفاعة مثبَتةٌ وهي الشَّفاعة لأهل التَّوحيد ولها شرطان: إذنُ الله للشَّافع ورضاه عن الشَّافع والمشفوع له.

والشَّفاعة الثَّانية: شفاعةٌ مَنفيَّةٌ وهي الشَّفاعةُ الَّتي كان يعتقدُها المشركون في آلهتهم ومعبوداتهم وهي الشَّفاعةُ من دون الله أي من غير إذنه سبحانه كما يشفع خواصُّ وأولياءُ الملوك والكُبَراء عندهم في الحوائج.

وجعل ابن القيِّم الشَّفاعةَ الشِّركيَّةَ المنفيَّةَ أصلاً من أصول الشِّرك فقال:

«فإنَّهُ سبحانه نفى الشَّفَاعَة الشِّركيَّة الَّتي كانوا يعتقدونها وأمثالُهم من المشركين، وهي شفاعةُ الوسائط لهم عند الله في جلب مَا يَنفَعهم ودفع ما يضرُّهم بذواتها وأنفسها بدون توقُّف ذلك على إذن الله ومرضاته لمن شاء أن يشفع فيه الشَّافع، فهذه الشَّفَاعَة الَّتي أبطلها اللهُ سبحانه ونفاها، وهي أصلُ الشِّرك كُلِّه، وقاعدتُه الَّتي عليها بِنَاؤه وآخيَتُه الَّتي يرجع إليها»[11].

(10) «طريق الهجرتين» (584).

(11) «مفتاح دار السَّعادة» (1952/3)، وانظر: «إغاثة اللَّهفان» (103/1، 104)، و(394/1، 400).

تعظيمُ الموتى والافتتانُ بقبورهم

فتنة القبور من أعظم الفتن الَّتي أضلَّ بها الشَّيطان الكثير من النَّاس وهذا كذلك أصل من أصول الشِّرك، فطلبُوا الحوائج من الموتى واستغاثوا بهم، وتوجَّهوا إليهم وقصدوهم، وهذا أصلُ الشِّرك، قال ابنُ القيِّم:

«ومن أعظم مكايده الَّتي كاد بها أكثرَ النَّاس، وما نجا منها إلاَّ مَن لم يُرد الله تعالى فتنتَه: ما أوحاه قديمًا وحديثًا إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور، حتَّى آل الأمرُ فيها إلى أن عُبِدَ أربابُها من دون الله، وعُبدت قبورُهم، واتُّخذت أوثانًا، وبُنيت عليها الهياكلُ، وصُوِّرت صُوَرُ أربابها فيها، ثمَّ جُعلت تلك الصُّورُ أجسادًا لها ظلٌّ، ثم جُعلت أصنامًا، وعُبدت مع الله، وكان أوَّلُ هذا الدَّاء العظيم في قوم نوح...»[12].

وقد بيَّن كيفيةَ تدرُّج الشَّيطان بالنَّاس في هذه الفتنة فقال:

«والمقصودُ: أنَّ الشَّيطانَ بلُطف كيده يُحسِّن الدُّعاءَ عند القبر، وأنَّه أرجحُ منه في بيته ومسجده وأوقات الأسحار. فإذا تقرَّر ذلك عنده نقله درجةً أخرى، من الدُّعاء عنده إلى الدُّعاء به، والإقسام على الله به، وهذا أعظمُ من الَّذي قبلَه، فإنَّ شأنَ الله أعظمُ من أن يُقسَم عليه، أو يُسأل بأحد من خلقه... فإذا قرَّر الشَّيطانُ عنده أنَّ الإقسامَ على الله به، والدُّعاءَ به أبلغُ في تعظيمه واحترامه، وأنجعُ في قضاء حاجته، نقله درجةً أخرى إلى دعائه نفسه من دون الله، ثمَّ ينقلُه بعد ذلك درجةً أخرى إلى أن يَتَّخذ قبرَه وثنًا يَعكُف عليه ويوقد عليه القنديلَ، ويعلِّق عليه السُّتور، ويَبني عليه المسجد، ويعبدُه بالسُّجود له، والطَّواف به وتقبيله واستلامه والحجِّ إليه والذَّبح عنده، ثمَّ ينقلُه درجةً أخرى إلى دعاء النَّاس إلى عبادته، واتِّخاذه عيدًا ومنسكًا وأنَّ ذلك أنفعُ لهم في دنياهم وآخرتهم»[13].

(12) «إغاثة اللَّهفان» (1/330).

(13) «إغاثة اللَّهفان» (1/389-391).

تعظيمُ الكواكب وروحانيَّاتها المزعومة

جعل ابنُ القيِّم الأصلَ السَّابقَ أصلَ شركِ العوام، وأمَّا هذا الأصلُ فجعله أصلَ شركِ الخواصِّ فقال رَحِمَهُ اللهُ:

«وتلاعبُ الشَّيطان بالمشركين في عبادة الأصنام له أسبابٌ عديدة، تلاعَب بكلِّ قوم على قدر عقولهم: فطائفةٌ دعاهم إلى عبادتها من جهة تعظيم الموتى، الَّذين صوَّروا تلك الأصنامَ على صُوَرهم، وهذا السَّببُ هو الغالبُ على عوامِّ المشركين.

وأمَّا خواصُّهم فإنَّهم اتخذوها بزعمهم على صُوَرِ الكواكب المؤثِّرة في العالَم عندهم، وجعلوا لها بيوتًا، وسدَنة، وحُجَّابا، وحجًّا وقُربانًا، ولم تزل هذه في الدُّنيا قديمًا وحديثًا، وأشدُّ الأمم في هذا النَّوع من الشِّرك: الهند، وأصلُ هذا المذهب من مشركي الصَّابئة، وهم قومُ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو مذهبٌ قديمٌ في العالَم، وأهلُه طوائفُ شتَّى، فوضعُ الصَّنم إنَّما كان في الأصل على شكل معبود غائب، فجعلوا الصَّنمَ على شكله وهيئته وصورته، ليكون نائبا منابَه، وقائمًا مُقامه، وإلاَّ فمن المعلوم أنَّ عاقلاً لا ينحتُ خشبة أو حجرًا بيده، ثمَّ يعتقد أنَّه إلهُه ومعبودُه»[14].

وذكر ابنُ القيِّم أنَّ الإشراكَ بالكواكب أقوى سببًا من الإشراك بالقبور فقال:

«وهذا أقوى السَّببيْن في الشِّرك الواقع في العالَم، وهو الشِّركُ بالنُّجوم وتعظيمُها، واعتقادُ أنَّها أحياءٌ ناطقة، ولها روحانيَّاتٌ تتنزَّل على عابديها ومخاطِبيها، فصوَّروا لها الصُّورَ الأرضيَّةَ، ثمَّ جعلوا عبادتَها وتعظيمَها ذريعةً إلى عبادة تلك الكواكب واستنزالِ روحانيَّاتها، وكانت الشَّياطينُ تتنزَّل عليهم وتخاطبُهم وتكلِّمهم وتُريهم من العجائب ما يدعوهم إلى بَذل نفوسهم وأولادهم وأموالهم لتلك الأجسام والتَّقرُّب إليها، وكان مبدأ هذا الشِّرك تعظيمَ الكواكب وظَنَّ السُّعود والنُّحوس وحصولَ الخير والشَّرِّ في العالَم منها، وهذا شركُ خواصِّ المشركين وأرباب النَّظر منهم، وهو شرك قوم إبراهيمَ»[15].

(14) باختصار من «إغاثة اللَّهفان» (2/972-975)، وانظر: «مفتاح دار السَّعادة» (3/1378-1383).

(15) «مفتاح دار السَّعادة» (3/1380).



القول على الله بلا علم

ذكر ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ المحرَّمات المذكورةَ في كتاب الله تعالى اثنا عشر جنسًا[16]، وأنَّ العبد لا يستحقُّ اسمَ التَّائب حتَّى يَخلُص منها جميعًا، وأنَّ القولَ على الله بلا علم أشدُّها حرمةً وأعظمُها إثمًا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وأمَّا القولُ على اللَّه بلا علم فهو أشدُّ هذه المحرَّمات تحريمًا، وأعظمُها إثمًا، ولهذا ذُكرَ في المرتبة الرَّابعة من المحرَّمات الَّتي اتَّفقت عليها الشَّرائعُ والأديانُ، ولا تُباحُ بحالٍ، بل لا تكونُ إلا مُحَرَّمةً، وليست كالميتة والدَّم ولحم الخنزير، الَّذي يُبَاحُ في حالٍ دونَ حالٍ.

فإنَّ المحَرَّمات نوعان: مُحَرَّمٌ لذاته لايُباحُ بحالٍ، ومُحَرَّمٌ تحريمًا عارضًا في وقت دون وقت، قال الله تعالى في المحَرَّم لذاته: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: 33] ثُمَّ انتقلَ منه إلى ما هو أعظمُ منه فقال: ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ ثُمَّ انتقل منه إلى ما هو أعظمُ منه، فقال: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ ثُمَّ انتقل منه إلى ما هو أعظمُ منه، فقال: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾، فهذا أعظمُ المحَرَّمات عند الله وأشدُّها إثمًا».

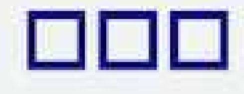
فالقول على الله بلا علم يتضمَّن الكذبَ على الله ووصفَه بما لا يليق في ذاته وصفاته وأفعاله؛ وهو أصل الشِّرك والضَّلال وعبادة غير الله، قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«فليس في أجناس المحَرَّمات أعظمُ عند اللَّه منه، ولا أشدُّ إثمًا، وهو أصلُ الشِّرك والكُفر، وعليه أُسِّست البدعُ والضَّلالاتُ، فكلُّ بدعة مُضلَّة في الدِّين أساسُها القولُ على اللَّه بلا علمٍ»[17].

وبيَّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجهَ كون القولِ على الله بلا علم أصلَ الشِّرك فقال:

«وأصلُ الشِّرك والكُفر هو القولُ على اللَّه بلا علم، فإنَّ المشركَ يزعُمُ أنَّ من اتَّخذَهُ معبودًا من دون اللَّه، يُقرِّبُهُ إلى اللَّه، ويَشفعُ له عنده، ويقضي حاجتَه بواسطته، كما تكون الوسائطُ عند الملوكِ، فكُلُّ مُشركٍ قائلٌ على اللَّه بلا علمٍ دون العكس، إذ القولُ على اللَّه بلا علمٍ قد يتضمَّنُ التَّعطيلَ والابتداعَ في دين اللَّه، فهو[18] أعظمُ من الشِّرك، والشِّركُ فَردٌ من أفراده»[19].

هذا ما وقفت عليه من أصول الشِّرك الَّتي ذكرها ابن القيِّم فأسأل اللَّه -عزَّ وجلَّ- أن يقيَنا وإخوانَنا الشِّركَ ما ظهر منه وما خفي، وأن يطهِّر بلادنا وسائرَ بلاد المسلمين من الشِّرك ومظاهره، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه.





(16) وهي: الكفر، والشِّرك، والنِّفاق، والفسوق، والعصيان، والإثم، والعدوان، والفحشاء، والمنكر، والبغي، والقول على بلا علم، واتِّباع سبيل غير سبيله، انظر: «مدارج السَّالكين» (2/899).

(17) «مدارج السَّالكين» (2/990).

(18) أي: القول على بلا علم.

(19) «مدارج السَّالكين» (2/991).



ضابط الانحراف عن القبلة

عباس ولد عمر

إمام خطيب. الجزائر

من شروط الصَّلاة الَّتي لا تصحُ إلَّا بتحقُّقها استقبال القبلة، وقد قرَّر العلماء أنَّه من كان مشاهدًا للكعبة ففرضه استقبال عينها، وأمَّا البعيد عنها ففرضه استقبال جهتها

هذا مذهب أكابر أصحاب النَّبيِّ ﷺ لا يعلم بينهم خلاف في ذلك، وهو قول الجماهير من الأئمَّة والفقهاء، لم يخالف في ذلك إلاَّ الشَّافعيَّة ـ في المشهور عندهم ـ وبعض المتأخِّرين من المذاهب الأخرى؛ فقالوا: إنَّه يجب على البعيد أن يجتهد في إصابة العين.

ولا شكَّ في رجحان القول الأوَّل؛ لأنَّه مؤيَّد بنصوص الكتاب، ويدلُّ عليه صحيح السُّنن وآثار الأصحاب رضي الله عنهم، ويرى بعض أهل العلم أنَّ الخلاف صوريٌّ لا حقيقةَ له[1].

وإذا كان المطلوب شرعًا هو استقبال الجهة؛ فيلزم منه أنَّ الصَّلاة تقع صحيحةً ما كانت في جهة الكعبة، فإذا خرج المصلِّي عن استقبال الجهة كانت الصَّلاة باطلةً إلاَّ من عذر، أو بعبارة أخرى: يُعفى عن الانحراف ما كان يسيرًا؛ فإذا فحش لم تصحَّ الصَّلاة.

وهذا الكلام وإن كان في غاية الوضوح من جهة التَّقرير؛ إلاَّ أنَّه كثيرًا ما يقع للنَّاس تخبُّط فيه عند التَّطبيق، بل أدى ذلك إلى حدوث نزاعات كبيرة، ونشوب فتن عظيمة، بين المصلِّين من أهل المسجد الواحد بسبب انحراف بنائه عن القبلة الصَّحيحة، ففريق يزعم أنَّ الانحراف يسير ويرتِّب عليه صحَّةَ الصَّلاة، وآخر يدَّعي أنَّ الانحراف كبير ويبني عليه بطلانَ الصَّلاة، فيَهجُر المسجدَ ويدعو النَّاسَ إلى ترك الصَّلاة فيه.

ومردُّ هذا التَّنازع بلا ريب إلى عدم رجوع القوم إلى ضابط صحيح يُدْرَك به الحدُّ الفاصل بين الانحراف اليسير والانحراف الفاحش، وقد رأيت بعض هؤلاء يتوسَّع توسُّعًا غير مرضيٍّ في فهم حديث النَّبيِّ ﷺ الَّذي قال فيه: «مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ قِبْلَةٌ»، ويجادل به عن صحَّة الصَّلاة ولو مع فحش الانحراف.

لأجل هذا وذاك رغبت في بحث هذه المسألة، ببيان أدلَّتها وذكر أقوال أهل التَّحقيق فيها، حتَّى يكون المصلِّي على بيِّنة من ربِّه، ويطمئنَّ بصحَّة صلاته، ولعلَّ ذلك يكون ـ بإذن الله ـ سببًا في جمع كلمة المختلفين، ودرء الفتنة عن مساجد المسلمين.

ولمَّا كان مدار البحث في هذه المسألة راجعًا إلى الحديث الآنف الذِّكر؛ فسأبتدئ بتخريجه مع بيان درجته، ثمَّ أُورِد بعده ما أُثر عن الصَّحابة في بابه، ثمَّ يتبع ذلك الكلام على فقهه.

■ تخريج الحديث:

عن أبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ قِبْلَةٌ».

رواه ابن أبي شيبة (7440) وابن ماجه (1011) والتِّرمذي (342 ـ

(1) انظر «مجموع الفتاوى» (22/208ـ210).

344) والبزَّار (8485) والطَّبراني في «الأوسط» (790. 2924. 9140) وابن عبد البرِّ في «التَّمهيد» (17/58. 59) من طريق ابن أبي شيبة، ومن طريق التِّرمذي الثَّانية رواه البغوي في «شرح السُّنَّة» (446).

ورواه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما الدَّارقطني في «السُّنن» (1060. 1061) والحاكم في «المستدرك» (741. 742)، ومن طريقي الحاكم رواه البيهقي في «السُّنن الكبرى» (2230. 2231).

أمَّا حديث أبي هريرة رضي الله عنه فله طريقان؛ الأولى: عن أبي معشر عن محمَّد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الثَّانية: عن المعلَّى بن منصور ثنا عبد الله بن جعفر المخرمي عن عثمان ابن محمَّد الأخنسي عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال التِّرمذي عقِب روايته للطَّريق الأولى: «حديث أبي هريرة قد روي عنه من غير وجه، وقد تكلَّم بعض أهل العلم في أبي معشر من قِبَل حفظه، واسمه: نجيح مولى بني هاشم، قال محمَّد: لا أروي عنه شيئًا، وقد روى عنه النَّاس، قال محمَّد: وحديث عبد الله بن جعفر المخرمي عن عثمان بن محمَّد الأخنسي عن سعيد المقبري عن أبي هريرة أقوى من حديث أبي معشر وأصحُّ».

ثمَّ ذكر التِّرمذي الطَّريق الثَّانية، ثمَّ قال: «هذا حديث حسن صحيح».

وقال الشَّيخ الألباني عن هذا الإسناد: «رجاله ثقات غير شيخ التِّرمذي الحسن بن بكر المروزي، قال مسلمة: (مجهول) كما في «التَّهذيب»، وذكر فيه جمعًا من الثِّقات رووا عنه، وكأنَّه لذلك قال في «التَّقريب»: «صدوق»، والله أعلم»[2].

ولعلَّ الشيخَ لم يقِفْ على رواية ابن أبي شيبة، فقد رواه بالإسناد المتقدِّم عن معلَّى بن منصور شيخ الحسن ابن بكر، ورجاله ثقات كما قال الشَّيخ؛ إلاَّ عثمان بن محمَّد الأخنسي ففيه كلام يسير لا ينزله عن رتبة الصِّدق والاحتجاج، قال الحافظ في «التَّقريب»: «صدوق له أوهام».

قال ابن حجر عن هذا الحديث في «بلوغ المرام»: «قوَّاه البخاري»، يريد بذلك ما نقله التِّرمذي عن البخاري فيما سبق، وقد اعترض بعض المعاصرين على الحافظ بأنَّ كلام البخاري ليس صريحًا في تقوية الحديث، وأنَّه إنَّما أراد مقارنة طريق بطريق، وكون إحدى الطَّريقين أقوى من الأخرى لا يلزم أن تكون قويَّةً في نفسها.

وهذا الَّذي ذُكر له وجه، لولا أنَّه ثبت عن الإمام البخاري ما فيه تأييد لما ذهب إليه ابن حجر، فقد حسَّن البخاري حديثًا يروى بهذا الإسناد، وهو الحديث الَّذي فيه: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ لعن المحلِّل والمحلَّل له»، قال التِّرمذي في «العلل الكبير» (ص161): «فسألت محمَّدًا عن هذا الحديث فقال: «هو حديث حسن، وعبد الله بن جعفر المخرمي صدوق ثقة، وعثمان بن محمَّد الأخنسي ثقة، وكنت أظنُّ أنَّ عثمان لم يسمع من سعيد المقبري»».

وقد قدح بعضهم أيضًا في حديث القِبلة، محتجًّا بالجملة الأخيرة من كلام البخاري، من غير مراعاة للسِّياق الَّذي وردت فيه، وصنيع البخاري لا يسعف عليه؛ لأنَّه صريح في تحسينه، ومقصود البخاري ـ والله أعلم ـ أنَّه كان يرى ذلك أوَّلاً ثمَّ ثبت عنده سماعه منه.

فجملة القول: إنَّ حديث أبي هريرة من طريق المخرمي حسن إن شاء الله تعالى.

وأمَّا حديث ابن عمر فيُروى من طريقين أيضًا:

الأولى: أبو يوسف الخلَّال يعقوب ابن يوسف نا شعيب بن أيُّوب ثنا عبد الله ابن نمير عن عبيد الله بن عمر العمري عن نافع عن ابن عمر.

شعيب بن أيُّوب: صدوق يدلِّس، كما قال الحافظ، إلاَّ أنَّه صرَّح بالتَّحديث، والرَّاوي عنه أبو يوسف يعقوب ابن يوسف الخلَّال الواسطي، قال عنه الألباني: «لم أجد له ترجمة»[3]، وقال الشَّيخ مقبل في «تراجم رجال الدَّارقطني» (ص498): «لم نجده»، بينما جزم صاحب «الدَّليل المغني» بأنَّه المترجم له في «تاريخ بغداد»[4]، وقد وثَّقه هنالك الخطيب[5]، فإن كان الأمر كما قال فظاهر الإسناد الصِّحَّة؛ لأنَّ بقيَّة رجاله ثقات، وإلاَّ ففيه مجهول الحال؛ لأنَّ أبا يوسف الخلاَّل هذا قد حدَّث عنه غير واحد منهم الدَّارقطني وابن بطَّة.

الثَّانية: يزيد بن هارون نا محمَّد ابن عبد الرَّحمن بن المجبِّر عن نافع عن ابن عمر.

وهذا إسناد ضعيف لضعف ابن المجبِّر.

(2) «أصل صفة الصلاة» (1/70) باختصار يسير، وهو أيضًا في «إرواء الغليل» (1/325) و«الثمر المستطاب» (2/847. 848).

(3) انظر المصادر السابقة.

(4) «الدليل المغني لشيوخ الدارقطني» (ص482).

(5) «تاريخ بغداد» (16/429).

ويتخلَّص لدينا ممَّا تقدَّم: أنَّ حديث أبي هريرة من طريق المُخَرِّمي حسن لذاته، وهو صحيح لغيره بشواهده، ولعلَّه لأجل ذلك قال فيه الترمذي: «حسن صحيح»، أي أنَّه حسن باعتبار طريق المُخَرِّمي، وصحيح لغيره باعتبار الطُّرق الأخرى؛ لأنَّ الضَّعف فيها ليس شديدًا، والله تعالى أعلم

■ الآثار عن الصَّحابة في ذلك:

ورد هذا الحديث موقوفًا من قول بعض أصحاب النَّبيِّ ﷺ بلفظه وبمعناه؛ فممَّن رُوي عنه ذلك:

❶ عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه قال: «ما بين المشرق والمغرب قبلة؛ إذا تُوجِّه قِبَلَ البيت».

رواه مالك في «الموطَّأ» (ص159) وعبد الرَّزَّاق (3633)، وابن أبي شيبة (7431 ـ 7432 ـ 7439)، والبيهقي (2233)، وابن الجعد في «المسند» (2405) وابن عبد البرِّ في «التَّمهيد» (59/17).

❷ عثمان بن عفَّان رضي الله عنه قال: «كيف يخطئ الرَّجل الصَّلاة وما بين المشرق والمغرب قبلة، ما لم يتحرَّ الشَّرق عمدًا».

رواه ابن عبد البرِّ في «التَّمهيد» (59/17)[6].

❸ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «ما بين المشرق والمغرب قبلة».

رواه ابن أبي شيبة (7435) وابن عبد البرِّ (59/17).

❹ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «ما بين المشرق والمغرب قبلة».

رواه عبد الرَّزَّاق (3636) وابن أبي شيبة (7433) والفاكهي في «أخبار مكَّة» (291) وزاد: «إلاَّ عند البيت».

وفي رواية لابن أبي شيبة (7434): «إذا جعلت المغرب عن يمينك والمشرق عن يسارك؛ فما بينهما قِبلةٌ لأهل الشَّمال».

وقد علَّقه التِّرمذي (ص95) لكن بلفظ: «إذا جعلت المغرب عن يمينك، والمشرق عن يسارك فما بينهما قبلة؛ إذا استقبلت القبلة».

❺ عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما قال: «ما بين المشرق والمغرب قبلة».

رواه ابن أبي شيبة (7436) وابن عبد البرِّ (17/59 ـ 60).

قال ابن تيمية في «الفتاوى» (208/22) بعد أن ذكر الحديث المرفوع: «وهكذا قال غير واحد من الصَّحابة: مثل عمر وعثمان وعليّ ابن أبي طالب وابن عبَّاس وابن عمر وغيرهم، ولا يعرف عن أحد من الصَّحابة في ذلك نزاع».

■ فقه الحديث:

دلَّ الحديث على أنَّه يُجزئ المكلَّف إن كان بعيدًا عن الكعبة غير مشاهد لها أن يستقبل جهتها، ولا يطالب بإصابة عينها؛ لأنَّ ذلك ممَّا لا يُستطاع، وهذا من تيسير الله على عباده ورفع الحرج عنهم، مصداق قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: 78].

يقول الصَّنعاني في بيان فقه هذا الحديث [«سبل السَّلام» (161/1)]: «والحديث دليل على أنَّ الواجب استقبال الجهة لا العين، في حقِّ من تعذَّرت عليه العين، وقد ذهب إليه جماعة من العلماء لهذا الحديث، ووجه الاستدلال به على ذلك: أنَّ المراد أنَّ بين الجهتين قبلة لغير المعاين ومن في حكمه؛ ...فالحديث دليل على أنَّ ما بين الجهتين قبلة، وأنَّ الجهة كافية في الاستقبال».

وقال الشَّوكاني في «نيل الأوطار» (197/2): «والحديث يدلُّ على أنَّ الفرض على مَنْ بَعُدَ عن الكعبة الجهة لا العين، وإليه ذهب مالك وأبو حنيفة وأحمد، وهو ظاهر ما نقله المزني عن الشَّافعي، وقد قال الشَّافعي أيضًا: إنَّ شطر البيت وتلقاءه وجهته واحد في كلام العرب...».

وقد دلَّ على معنى هذا الحديث نصوصٌ أُخَرُ من كتاب الله تعالى وسنة نبيِّه ﷺ.

□ قال الله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: 144].

قال ابن تيمية في «الفتاوى» (207/22): «وشطره: نحوه وتلقاؤه كما قال:

أقيمي أم زنباع أقيمي
صدور العيس شطر بني تميم».

وقال سبحانه في سياق الآية السَّابقة: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: 148].

وقال أيضًا[7]: «و(الوجهة) هي الجهة كما في عِدَة وزِنَة، أصلها: وِعْدَة ووِزْنَة، فالقبلة هي الَّتي تُستَقْبَل، والوِجْهَة هي الَّتي يُوَلِّيها».

□ ومن هذه النُّصوص كذلك: حديث أبي أيُّوب رضي الله عنه الَّذي قال فيه النَّبيُّ ﷺ: «إذَا أَتَيْتُمُ الغَائِطَ فَلاَ

(6) في سنده محمَّد بن فضاء بن خالد الجهضمي وهو مضعف، وأبوه مجهول.

(7) المرجع السَّابق.

تَسْتَقْبِلُوا القِبْلَةَ وَلاَ تَسْتَدْبِرُوهَا بِبَوْلٍ وَلاَ غَائِطٍ، وَلَكِنْ شَرِّقُوا أَوْ غَرِّبُوا»[8].

فهذا الحديث وإن كان ورد في قضاء الحاجة؛ إلاَّ أنَّه يدلُّ على معنى ما دلَّ عليه حديث أبي هريرة من أنَّ ما أمر المصلِّي باستقباله في الصَّلاة هو عين ما نهي عن استقباله عند قضاء الحاجة، ألا وهو الجهة الَّتي فيها الكعبة لا القدر المصيب لعينها فحسب، هذا استنباط الإمام البخاري، حيث بوَّب على حديث أبي أيُّوب بقوله: «باب قبلة أهل المدينة وأهل الشَّام والمشرق، ليس في المشرق ولا في المغرب قبلة؛ لقول النَّبيِّ ﷺ: «لا تَسْتَقْبِلُوا القِبْلَةَ بِغَائِطٍ أَوْ بَوْلٍ، ولَكِنْ شرِّقُوا أَوْ غَرِّبُوا»».

قال ابن رجب في «فتح الباري» (289/2): «مقصوده بهذا الباب: أنَّ أهل المدينة ومن كان قريبًا من مُسامَّتهم كأهل الشَّام والعراق؛ فإن قبلتهم ما بين المشرق والمغرب من جهة الكعبة، وأنَّ المشرق والمغرب ليس قبلة لهم، وما بينهما فهو لهم قبلة، بدليل أنَّ النَّبيَّ ﷺ نهاهم عن استقبال القبلة بغائط أو بول، وأمرهم أن يشرِّقوا أو يغرِّبوا، فدلَّ على أنَّ الشَّرق والغرب ليس لهم قبلة، وما بينهما فهو لهم قبلة».

وقال كذلك (279/2): «وإذا ثبت أنَّ القبلة المنهيَّ عن استقبالها واستدبارها عند التَّخلِّي هي ما بين المشرق والمغرب، فهي القبلة المأمور باستقبالها في الصَّلاة أيضًا».

قال ابن تيمية في «الفتاوى» (208.207/22): «فنهى عن استقبال القبلة بغائط أو بول، وأمر باستقبالها في الصَّلاة، فالقبلة الَّتي نهى عن استقبالها واستدبارها بالغائط والبول هي القبلة الَّتي أمر المصلِّي باستقبالها في الصَّلاة».

وقال في «شرح العمدة» (538/4): «وهذا بيان لأنَّ ما سوى التَّشريق والتَّغريب استقبال للقبلة أو استدبار لها، وهذا خطاب لأهل المدينة ومن كان على سمتهم».

وقد جاء في تمام الحديث قول أبي أيُّوب: «فقدمنا الشَّام فوجدنا مراحيض بنيت قبل القبلة، فننحرف ونستغفر الله عزَّ وجلَّ».

وقد ذكروا في سبب استغفار أبي أيُّوب، أنَّه لم يستطع أن يشرِّق أو يغرِّب، فانحرف انحرافًا لم يخرج به عن الجهة، فاحتاج معه إلى الاستغفار، يقول ابن رجب «فتح الباري» (297/2): «وإنَّما ذكر هاهنا قول أبي أيُّوب ليدلَّ على أنَّ أبا أيُّوب. وهو راوي الحديث عن النَّبيِّ ﷺ. قد فهم ممَّا رواه أنَّ القبلة المنهيَّ عن استقبالها هي جهة ما بين المشرق والمغرب، وأنَّ الانحراف لا يخرج به عن استقبالها المنهيِّ عنه، فلذلك احتاج مع ذلك إلى الاستغفار».

فعُلم ممَّا تقدَّم أنَّ الله تعالى وسَّع على النَّاس في أمر القبلة ولم يكلِّفهم إصابة عين الكعبة، وأنَّ صلاتهم صحيحة ما كانوا متوجِّهين إلى الجهة.

■ ما دلَّ عليه الحديث لا يختصُّ بأهل المدينة:

واعلم أنَّ ما ذُكر في حديث أبي هريرة وحديث أبي أيُّوب رضي الله عنه ليس على إطلاقه في جميع البلاد، بل هو خاصٌّ بأهل المدينة ومن كان على سمتهم، هذا فيما يتعلَّق بالمشرق والمغرب، وأمَّا من جهة ما دلَّ عليه من التَّوسعة في الاستقبال، فهو عامٌّ في كلِّ الأقطار، فيطالب النَّاس في أيِّ مكان كانوا أن يستقبلوا جهة الكعبة، ولهم في ذلك من السَّعة مثل ما لأهل المدينة.

جاء في «المنتقى» للباجي (340/1): «قال أحمد بن خالد: وأمَّا من كان من مكَّة في المشرق أو في المغرب فإنَّ قبلتهم ما بين الجنوب والشَّمال، ولهم من السَّعة في ذلك مثل ما لأهل المدينة وغيرهم».

وروى ابن عبد البرِّ في «التَّمهيد» (60/17) عن الإمام أحمد أنَّه قال: «هذا في كلِّ البلدان، قال: وتفسيره أنَّ هذا المشرق وأشار بيساره، وهذا المغرب وأشار بيمينه، قال: وهذه القبلة فيما بينهما وأشار تلقاء وجهه، قال: وهكذا في كلِّ البلدان إلاَّ بمكَّة عند البيت... قيل لأبي عبد الله: فإنْ صلَّى رجل فيما بين المشرق والمغرب ترى صلاته جائزة؟ قال: نعم؛ صلاته جائزة؛ إلاَّ أنَّه ينبغي له أن يتحرَّى الوسط».

وقد شرح هذا الأثر ابن عبد البرِّ في «الاستذكار» (458/2 . 459) فقال: «تفسير قول أحمد بن حنبل: «هذا في كلِّ البلدان»، يريد أنَّ البلدان كلَّها لأهلها من السَّعة في قبلتهم مثل ما لمن كانت قبلتهم بالمدينة الجنوب الَّتي تقع لهم فيها الكعبة، فيستقبلون جهتها ويتَّسعون يمينًا وشمالاً فيها ما بين المشرق والمغرب، يجعلون المغرب عن أيمانهم والمشرق عن يسارهم، وكذلك لأهل اليمن من السَّعة في قبلتهم مثل ما لأهل المدينة ما بين المشرق والمغرب إذا توجَّهوا أيضًا قبل القبلة، إلاَّ أنَّهم يجعلون المشرق عن أيمانهم والمغرب عن يسارهم، وكذلك أهل العراق

(8) رواه البخاري (394) ومسلم (264) واللَّفظ له.

وخراسان لهم من السّعة في استقبال القبلة ما بين الجنوب والشّمال مثل ما كان لأهل المدينة من السّعة فيما بين المشرق والمغرب، وكذلك ضدّ العراق على ضدّ ذلك أيضًا، وإنَّما تضيق القبلة كلَّ الضّيق على أهل المسجد الحرام، وهي لأهل مكَّة أوسع قليلاً، ثمَّ هي لأهل الحرم أوسع قليلاً، ثمَّ لأهل الآفاق من السّعة على حسب ما ذكرناه».

قال الشَّيخ ابن عثيمين في «الشَّرح الممتع» (273/2): «وقوله: (ومَنْ بَعُدَ جهتُها)، أي: من بَعُدَ عن الكعبة بحيث لا يمكنه المشاهدة؛ فيجب عليه إصابةُ الجهة، والجهة حدَّدها النَّبيُّ ﷺ فقال: «لاَ تَسْتَقْبِلُوا القِبْلَةَ بِغَائِطٍ ولاَ بَوْلٍ ولاَ تَسْتَدْبِرُوهَا، ولَكِنْ شَرِّقُوا أو غَرِّبُوا»، لَمَّا قال: «شَرِّقُوا أو غَرِّبُوا» يريد بذلك عكس القِبْلة، وعلى هذا فيكون ما بين المشرق والمغرب بالنِّسبة لأهل المدينة كلُّه قِبْلة، فالجنوب كلُّه قِبْلة لهم، ليس قِبْلتهم ما سامت الكعبة فقط، وبهذا نعرف أنَّ الأمر واسع، فلو رأينا شخصًا يُصلِّي منحرفًا يسيرًا عن مُسامَتَة القِبْلة، فإنَّ ذلك لا يضرُّ؛ لأنَّه متَّجه إلى الجهة وهذا فرضه، وجهة القِبْلة لمن كانوا شمالاً عن الكعبة ما بين الشَّرق والغرب، ولمن كانوا شرقًا عن الكعبة ما بين الشَّمال والجنوب، ولمن كانوا غربًا ما بين الشَّمال والجنوب، ولمن كانوا جنوبًا عن الكعبة ما بين الشَّرق والغرب، فالجهات إذًا أربع، وهذا مقتضى حديث أبي أيُّوب».

■ الانحراف المعفو عنه هو الَّذي لا يخرج به المصلّي عن الجهة:

فإذا تقرَّر عندنا أنَّ الواجب شرعًا إنَّما هو استقبال الجهة، وأنَّ ذلك شرط في صحَّة الصَّلاة؛ فإنَّه ينبني على ذلك أنَّه من صلَّى صلاة انحرف فيها عن سمت الكعبة، لم يحكم ببطلان صلاته حتَّى يكون خارجًا عن جهتها، وهذا ما يسمِّيه العلماء بالانحراف الفاحش، وما دونه فهو اليسير المعفو عنه، ويكون الخروج عن جهة القبلة باستقبال غيرها، وهي الثَّلاث الباقية؛ لأنَّ الجهات الأصليَّة أربع، فبالنسبة لأهل المدينة إمَّا بالتَّشريق أو التَّغريب، ومن باب أولى التَّوجه إلى الشَّمال؛ لأنَّه استدبار للقبلة، وفي حكمهم من يكون في جنوب مكَّة كأهل اليمن ومن دونهم، إلاَّ أنَّهم يفترقون عنهم في الاستدبار، فيكون بالنِّسبة لهم بالتَّوجُّه إلى الجنوب؛ لأنَّ قبلتهم الشَّمال، وأمَّا من كان في المشرق أو في المغرب فيخرجون عن الجهة بالتَّوجُّه إلى الشَّمال أو الجنوب، ويكون استدبار أهل المغرب باستقبالهم له؛ لأنَّ قبلتهم مشرق الشَّمس، وأهل المشرق كذلك باستقبالهم له؛ لأنَّ قبلتهم مغرب الشَّمس.

جاء في «المدوَّنة» (184/1): «وقال مالك فيمن استدبر القبلة أو شرق أو غرب؛ فصلَّى وهو يظنُّ أنَّ تلك القبلة، ثمَّ تبيَّن له أنَّه على غير القبلة؛ فقال: يقطع ما هو فيه ويبتدئ الصَّلاة، قال: فإن فرغ من صلاته ثمَّ علم في الوقت فعليه الإعادة، قال: وإن مضى الوقت فلا إعادة عليه، قال: وقال مالك: لو أنَّ رجلاً صلَّى فانحرف عن القبلة ولم يشرِّق ولم يغرِّب؛ فعلم بذلك قبل أن يقضي صلاته، قال: ينحرف إلى القبلة ويبني على صلاته ولا يقطع صلاته».

ووجه كلام مالك؛ تفريقه في الحكم بين الانحراف الَّذي يحصل به تشريق أو تغريب، والَّذي لا يحصل به ذلك.

وهذا عند مالك في حقِّ من خفيت عنه جهة الكعبة فصلَّى إلى غيرها اجتهادًا؛ لأنَّه لا يظنُّ بمسلم أن يترك التَّوجُّه إلى القبلة عمدًا، وأمَّا أمره بالإعادة فهو على سبيل الاستحباب لا الوجوب بناء على أصله في الإعادة في الوقت، قال ابن عبد البرِّ في «التمهيد» (58/17): «وأما قول من قال يعيد ما دام في الوقت فإنَّما هو استحباب؛ لأن الإعادة لو وجبت عليه لم يسقطها خروج الوقت».

يقول ابن عبد البر كذلك ـ وهو يتكلم عن حديث ابن عمر في أهل قباء لما بلغهم تحويل القبلة وهم في الصلاة؛ فاستداروا إلى جهة الكعبة ـ «التمهيد» (54/17 ـ 56): «وفي حديث هذا الباب دليل على أنَّ من صلَّى إلى القبلة عند نفسه باجتهاده، ثم بان له وهو في الصلاة أنه استدبر القبلة أو شرق أو غرب؛ أنه ينحرف ويبني، وإنما قلت: إن الاستدبار والتشريق والتغريب سواء، لأن بيت المقدس لا يكاد أن يستقبله إلا من استدبر الكعبة... واختلف الفقهاء فيمن غابت عنه القبلة فصلى مجتهدًا كما أمر، ثمَّ بان له بعد فراغه من الصَّلاة أنَّه قد أخطأ القبلة بأن استدبرها أو شرق أو غرب عنها، أو بان له ذلك وهو في الصَّلاة؛ فجملة قول مالك وأصحابه....، ثمَّ ذكر مذهبه الذي تقدم فيمن أتَمَّ الصَّلاة إلى غير القبلة اجتهادًا، ثم قال: فإن علم أنَّه استدبرها وهو في صلاته أو شرَّق أو غرَّب؛ قطع وابتدأ، وإن لم يشرِّق ولم يغرِّب، ولكنه انحرف انحرافًا يسيرًا؛ فإنَّه ينحرف إلى القبلة إذا علم ويتمادى، ويجزئه

ولا شيء عليه؛ قال أشهب: سئل مالك عمَّنْ صلَّى إلى غير قبلة؟ فقال: إن كان انحرف انحرافًا يسيرًا فلا أرى عليه إعادة، وإن كان انحرف انحرافًا شديدًا فأرى عليه الإعادة ما كان في الوقت».

وقال أيضا «التَّمهيد» (58/17):

«وكذلك يشهد النَّظر لقول من قال في المنحرف عن القبلة يمينًا أو شمالاً، ولم يكن انحرافه ذلك فاحشًا فيشرق أو يغرب: إنَّه لا شيء عليه؛ لأنَّ السَّعة في القبلة لأهل الآفاق مبسوطة مسنونة، وهذا معنى قول رسول الله ﷺ وقول أصحابه: «ما بَيْنَ المشْرِقِ والمغْرِبِ قِبْلَة»، [ثمَّ ذكر بأسانيده الحديث مرفوعًا وموقوفًا]».

والذي يستفاد من هذه النُّقول أنَّ خروج المصلِّي عن القبلة يكون باستقباله إحدى الجهات الثَّلاث؛ بالتَّشريق أو التَّغريب أو الاستدبار، وهذا الذي يعدُّ عند العلماء انحرافا فاحشًا، وأمَّا ما كان دون ذلك فهو من الانحراف اليسير المعفو عنه كما هو صريح قول مالك.

وفي هذا يقول النَّووي كذلك «المجموع» (236/3): «إذا انحرف المصلِّي على الأرض فرضًا أو نفلاً عن القبلة، نُظر إن استدبرها أو تحول إلى جهة أخرى عمدًا بطلت صلاته».

■ حدُّ الانحراف الجائز:

نأتي الآن إلى بيت القصيد في هذا البحث، ألا وهو معرفة الضابط الَّذي يُمَيَّزُ به بين الانحراف اليسير والانحراف الشَّديد.

وأقدِّم بين يدي ذلك هذه الكلمات لشيخ الإسلام ابن تيمية في بيان حدود الأشياء التي خوطبنا بها في الشَّرع، قال كما في «الفتاوى» (216/22): «بل لو كان منحرفًا انحرافًا يسيرًا لم يقدح ذلك في الاستقبال، والاسم إن كان له حدٌّ في الشرع رُجع إليه، وإلا رُجع إلى حدِّه في اللُّغة والعُرف، والاستقبال هنا دلَّ عليه الشَّرع واللُّغة والعرف، وأمَّا الشَّارع فقال: «مَا بين المشْرِقِ والمغربِ قبلة»، ومعلوم أنَّ من كان بالمدينة والشَّام ونحوهما إذا جعل المشرق عن يساره والمغرب عن يمينه فهو مستقبل للكعبة ببدنه؛ بحيث يمكن أن يخرج من وجهه خط مستقيم إلى الكعبة ومن صدره وبطنه؛ لكن قد لا يكون ذلك الخط من وسط وجهه وصدره، فعلم أن الاستقبال بالوجه أعم من أن يختص بوسطه فقط، والله أعلم».

فحد الاستقبال إذن؛ دلَّ عليه الشَّرع وعرف أيضًا باللُّغة والعرف.

أمَّا أدلَّة الشَّرع عليه فهي التي قدمت ذكرها.

وأمَّا دلالة اللُّغة والعرف؛ فما علم منهما أن الجهات أربع، وأن الإنسان إذا استقبل ما عن يمينه أو عن شماله يكون بذلك قد انحرف عن الجهة التي كانت قبل وجهه، وقد أوضح أصحاب النبي ﷺ ـ وهم أعلم الناس بالشريعة واللغة ـ معنى ما جاء به حديث أبي هريرة غاية الإيضاح، فقال عمر: «إذا تُوجِه قبل البيت»، وفي اللَّفظ الآخر: «ما استقبلت القبلة»، وقال عثمان: «ما لم يتحرَّ الشَّرق عمدًا»، وقال عبد الله بن عمر: «إذا جعلت المغرب عن يمينك، والمشرق عن يسارك فما بينهما قبلة، إذا استقبلت القبلة».

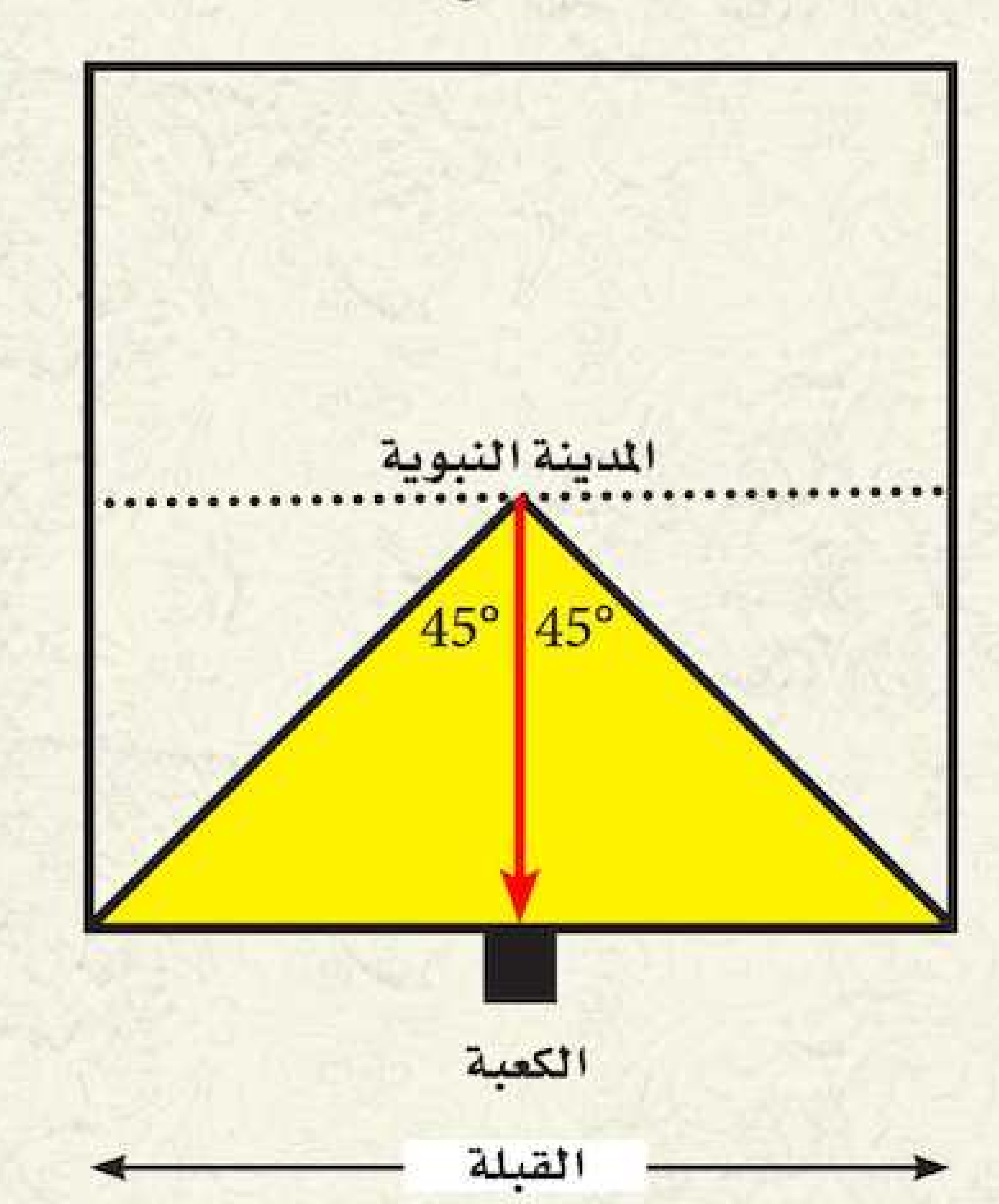
وكأنِّي بهم ـ رضوان الله عليهم ـ قد علموا أن بعض النَّاس سيفهمون الحديث على غير وجهه، ويحمِّلونه ما لا يحتمل، فلذلك أتبعوه بتلك الجمل التي تفسر كلام النبي ﷺ وتوضحه، فكلام عمر وعثمان يدل على اغتفار الانحراف ما كان في الجهة وما لم يتحر غيرها، ويفهم من كلام ابن عمر أنَّه لا يزال في الجهة ما بقي المغرب عن يمينه والمشرق عن يساره، فإذا صار شيء من الجهة التي فيها القبلة عن يمينه أو عن يساره فإنه يكون بذلك قد انصرف إلى غيرها.

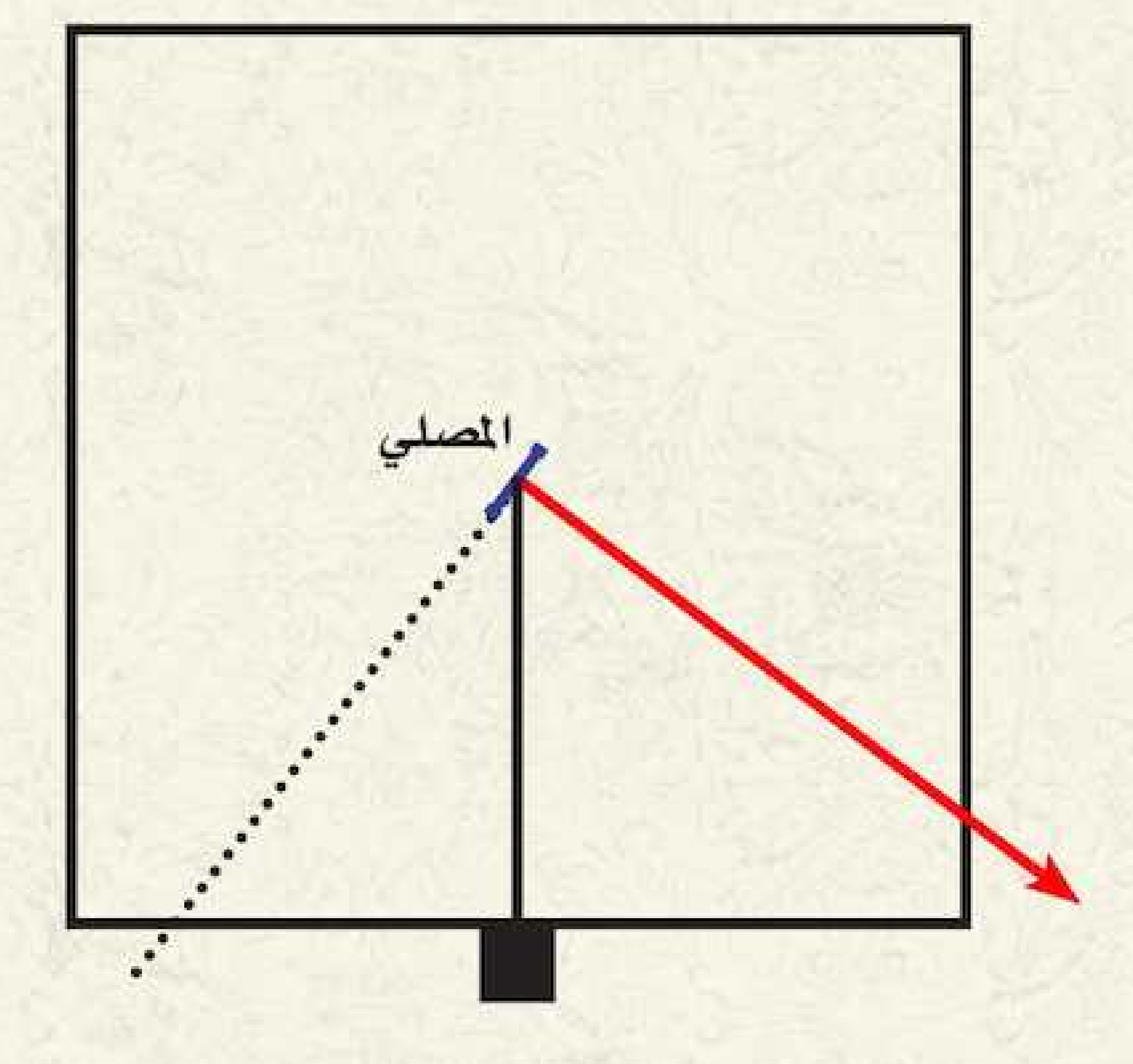
والذي يستفاد من مجموع كلام من نقلت عنهم من الصحابة ومن بعدهم من أهل العلم: أنَّ حدَّ الانحراف السَّائغ الذي لا يخرج به المصلي عن الجهة هو: (45°) يمنة ويسرة، فما زاد على ذلك خرج به المصلي عن الجهة وصار مشرقا أو مغربًا

وهذا ما يفتي به شيخنا محمَّد علي فركوس، فقد ذكر في مقاله الموسوم بـ«الانحراف الفاحش عن قبلة المسلمين بين الإنصاف والتعنت»: أنَّ ضابط الانحراف هو نصف الزاوية القائمة[9].

وبيان ذلك بالمثال التَّالي: نفرض رجُلاً يقف في وسط غرفة مربعة الجدران، وهو يستقبل إحدى جهاتها الأربع استقبالا تامًّا لا انحراف فيه، ثمَّ إنَّه شرع في الانحراف عن يمينه أو عن شماله، فإنه بذلك يبقى مستقبل الجدار بصدره ووجهه إلى أن يبلغ انحرافه (45°)، فإذا توقف عند ذلك الحد صار متجها إلى نقطة التقاء الجدارين، فإذا زاد على ذلك صار مستقبلا الجدار الذي كان عن يمينه أو

(9) انظره في موقع الشيخ الرسمي.





مثال الخروج عن جهة الكعبة:
صارت الجهة على جنب المصلي ولم يعد الغرب عن يمينه

يساره وأصبح الجدار الأول على جنبه.

وهذا رسم فيه إيضاح لهذا المثال:

وإتماما للفائدة أختم هذا البحث بإيراد فتاوى بعض أهل العلم المعاصرين، مما له تعلق بهذه المسألة وفيه مزيد إيضاح لها.

□ **سئل الشيخ ابن باز** في برنامج «نور على الدرب» (ش 127/س1):

«كنا نصلي في أحد المساجد في قريتنا، وصلينا فترة من الزمن إلى غير القبلة حيث كانت القبلة مائلة كثيرا، هل نعيد الصلاة وقد صلينا فترة طويلة؟ نرجو التوجيه.

فأجاب:

هذا فيه تفصيل، إن كان الميل كثيرا فعليكم الإعادة، أما إذا كان الميل يسيرا وأنتم إلى جهة القبلة، ولكن ملتم يمينا أو شمالا فليس عليكم إعادة، لكن إن كان الميول كثيرا فعليكم القضاء، لأنكم صليتم إلى غير القبلة وأنتم في البلد في إمكانكم السؤال والحرص، فهذا فيه تساهل وعدم عناية، فلهذا يجب القضاء».

□ **وسئل الشيخ ابن عثيمين** في «نور على الدرب» (ش 82/ وجه أ/س 10):

«يوجد لدينا مسجد تنحرف فيه القبلة عن اتجاهها الصحيح بحوالي ثلاث درجات حسب البوصلة المعدة لتحديد جهة الكعبة، وقد دأب الناس على الصلاة حسب اتجاه المسجد لعدم علم الكثيرين منهم بانحراف المسجد عن القبلة، فهل هذا الأمر يؤثر على صحة الصلاة، وهل يجب تعديل المسجد، أم يصح إبقاؤه على حالته؟

فأجاب:

إذا كان الانحراف لا يخرج الإنسان عن الجهة فإن ذلك لا يضر، والاستقامة أولى بلا ريب. أما إذا كان هذا الانحراف يخرج الإنسان عن جهة القبلة، مثل أن يكون متجهاً إلى الجنوب والقبلة شرقاً، أو إلى الشمال والقبلة شرقاً، أو إلى الشرق والقبلة جنوباً، فلا ريب أن هذا يجب [فيه][10] تعديل المسجد، أو يجب الاتجاه إلى جهة القبلة وإن خالفت جهة المسجد».

هذا ما يسر الله جمعه وذكره، فما أصبت فيه فمن الله وحده، وما كان من خطأ فإني أستغفر الله منه، وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم.

(10) زيادة يقتضيها السياق.







عليك بالسُّنَّةِ...

فإنَّ من النَّـاس من لا يُعَـابُ

عبد المجيد تالي

من قواعد الشَّرع في باب الاتِّباع والتأسِّي: لُـزُومُ السُّنَّة والوصايةُ بها والتَّرغيبُ فيها وعدمُ الحَيْدَةِ أو الرَّغْبَةُ عنها، كما أنَّ من قواعده في أهلِ الفضل والاقتداء: معرفةُ قدرِهم وعدم هَضْمِهم حَقَّهم والطَّعنِ في جنابِهم مع تَقَفِّي آثارِهم وسلوك سبيلِهم؛ من غير التفاتٍ إلى ما يَبْدُرُ من بعضهم من زلَّاتٍ أو هفواتٍ، أو حتَّى التَّأويلاتِ البعيدةِ عن روح الشَّريعة ومقاصدها.

ومن جميل الكلام المأثور في باب التَّأسِّي والاتِّباع، والتَّبجيل والإكبارِ لأهل الفضل والاقتداء، ما أُثر عن عَلَم السُّنَّة وفقيه المدينة النَّبويَّة في زمانه؛ القاسمُ ابنُ محمَّد بنِ أبي بكرٍ رحمه الله[1].

خرَّج أبو عمر ابن عبد البر رحمه الله في «جامع بيان العلم وفضله» (2374)، و«التَّمهيد» (170/11) من طريق ابن وهب، حدَّثنا ابن لهيعة، عن بُكَيْرِ ابنِ الأَشَجِّ، أنَّ رجلاً قال للقاسمِ بن محمَّد:

عَجَبًا من عائشة كيف كانت تصلِّي في السَّفَرِ أربعةً، ورسولُ ﷺ كان يصلِّي ركعتين؟ فقال: «يَا ابنَ أَخِي عَلَيْكَ بسُنَّة رسولِ الله ﷺ حَيْثُ وَجَدْتَهَا، فإنَّ من النَّاس من لا يُعَابُ».

وهذا القول من هذا العَلَم: وصيَّةٌ جامعةٌ، وأصلٌ من أصول السُّنَّة، وقاعدةٌ من قواعدِ المنهج السَّلَفي السُّنِّي في «باب الاقتداء»، ولَفتَةٌ إلى أمرٍ مُهمٍّ من أمورِ الشَّرع الحنيف؛ وهو: مراعاةُ الدَّليل بغضِّ النَّظر عن تصرُّفاتِ مَنْ يُظنُّ بهم الاقتداءُ في أفعالِهم، كما أنَّه دعوةٌ إلى الاعتراف لأهل الفضل بفضلهم، وعدم عيبِهم أو التَّقليلِ من شأنهم.

□ **أمَّـا كونه «وصيَّةٌ جامعةٌ»:** فلأنَّها جمعتْ من العلم أصلين اثنين؛ أولهما في التَّمسك بالسُّنَّة تقعيدًا وانتهاجًا، وثانيهما: في التَّأدُّب مع أولي الفضل إكبارًا وإجلالاً.

□ **أمَّـا كونُه «أصلٌ من أصول السُّنَّة»:** فلأنَّ السُّنَّة عليها المُعَوَّلُ في أحكام الشَّرع وتعاليمه عمومًا، عقيدةً وفقهًا وسلوكًا ومنهجًا. وإليها المرجعُ حالَ التَّنازع والتَّحاكم والاختلاف خصوصًا، قال جلَّ وعلا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء].

وفي لزومها النَّجاةُ والفلاح، كما أُثر عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله: «السُّنَّة سفينةُ نوح من ركبَها نَجا ومن تخلَّف عنها غَرِقَ»، وفي حديث عكرمة عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ خَطَبَ النَّاسَ في حَجَّة الوداع فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا كِتَابَ اللَّه وَسُنَّةَ نَبِيِّه» [رواه البيهقي (114/10)].

لذا حَسُنَ الرُّجوع إليها في هذه

---

(1) والقاسم بن محمَّد رحمه الله أحدُ أئمَّة السُّنَّة وأعلامها في زمانه، روى عبد الرَّحمن بن أبي الزناد، عن أبيه قال: «ما رأيتُ أحدًا أعلمَ بالسُّنَّة من القاسم بن مُحَمَّد» انظر: «التَّاريخ الكبير» للبخاري (157/7)، و«سير أعلام النُّبلاء» (56/5).

القضيَّة بالذَّات وعليها وَقَعَ الإرشادُ والنُّصْحُ والدِّلالَةُ من القاسم رَحِمَهُ اللهُ للسَّائل عمومًا، وهذا منهجٌ سويٌّ في التَّعليم عليه أَثَرَةٌ من علم النُّبُوَّة. وعليه كان صَدْرُ هذه الأمَّة في التَّعليم والتَّربية والتَّأديب والتَّوجيه وهو: سلوكُ طريق التَّدليل في مسائل الشَّرع، والانضباطِ بسلطان الحُجَّةِ والبيانِ.

روى التِّرمذي (824) عن ابن شهاب، أَنَّ سالم بن عبد الله، حَدَّثَه، أَنَّه سمع رجلاً من أهلِ الشَّام، وهو يسألُ عبد الله بن عمر عن التَّمَتُّع بالعمرةِ إلى الحَجِّ؟ فقال عبد الله بن عمر: «هي حَلَالٌ»، فقال الشَّاميُّ: إِنَّ أباكَ قد نهى عنها، فقال عبدُ اللهِ بنُ عمر: «أَرَأَيْتَ إِنْ كان أَبِي نَهَى عنها وصَنَعَهَا رسولُ الله ﷺ، أَأَمْرَ أَبِي نَتَّبِعُ؟ أَمْ أمرَ رسولِ الله ﷺ؟»، فقال الرَّجُلُ: بل أمرَ رسولِ الله ﷺ، فقال: «لَقَدْ صَنَعَهَا رَسُولُ الله ﷺ».

وعن سعيد بن يَسَارٍ، أَنَّهُ قال: كنتُ أَسِيرُ مع عبد الله بن عمر بطريق مَكَّةَ، فقال سَعِيدٌ: فَلَمَّا خَشِيتُ الصُّبْحَ نَزَلْتُ، فَأَوْتَرْتُ، ثُمَّ لَحِقْتُهُ، فقال عبد الله ابن عمر: أَيْنَ كُنْتَ؟ فقلتُ: خَشِيتُ الصُّبْحَ، فَنَزَلْتُ، فَأَوْتَرْتُ، فقال عبد الله: أَلَيْسَ لَكَ فِي رَسُولِ اللَّه ﷺ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ؟ فقلتُ: بَلَى واللهِ، قال: «فَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يُوتِرُ عَلَى البَعِيرِ» [متَّفق عليه].

□ أمَّا كونه «قاعدةٌ من قواعد المنهج السَّلفي السُّنِّي في (باب الاقتداء)، ولَفْتَةٌ منه رَحِمَهُ اللهُ إلى: مراعاةِ الدَّليل بغضِّ النَّظر عن تصرُّفات مَنْ يُظَنُّ بهم الاقتداءُ في الأفعال»: فهو بيانُ المسلكِ الشَّرعيِّ الصَّحيح المتَّبع في التَّعامل مع مسائل الدِّين والتَّصرُّفات النَّاتجة عن أهلها؛ وذلك في ضبطها وإخضاعها لميزان الشَّرع كتابًا وسُنَّةً، وهذا مسلكٌ سُنِّيٌّ تشهدُ له بالاعتبار جملةٌ من الآثار عن أئمَّة السَّلف.

وعليه خرجتْ هذه الوصيَّةُ من القاسم بن محمَّد رَحِمَهُ اللهُ: «يَا ابنَ أَخِي عَلَيْكَ بسُنَّةِ رسولِ الله ﷺ حَيْثُ وَجَدْتَهَا».

فعن أنس بن سيرين قال: اسْتَقْبَلْنَا أنسًا حين قَدِمَ من الشَّام، فَلَقِينَاهُ بِعَيْنِ التَّمْرِ، فَرَأَيْتُهُ يُصَلِّي على حمارٍ ووَجْهُهُ من ذا الجانب ـ يعني: عن يسارِ القِبْلَةِ ـ فقلتُ: رأيتُك تُصَلِّي لغير القِبْلَة، فقال: «لَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَعَلَهُ لَمْ أَفْعَلْهُ» [متَّفق عليه].

فهذا الأثر السَّلفي تطبيقٌ عمليٌّ لهذه القاعدة الشَّرعيَّة فاظفر به وانتبه مع ذلك لاستفسار أنس بن سيرين رَحِمَهُ اللهُ وسؤاله لشيخه عن مستنده وتلطُّفه في ذلك.

حيث قال: «رأيتُك تُصَلِّي لغير القِبْلَة» ففيه إشعار بأنَّه لم ينكر الصَّلاة على الحمار ولا غير ذلك من هَيْئَةِ أنس رضي الله عنه في ذلك، وإنَّما أنكر عدم استقبال القبلة فقط[2].

ولجواب أنس رضي الله عنه: «لَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَعَلَهُ لَمْ أَفْعَلْهُ» حيث أسند ذلك لفعل النَّبيِّ ﷺ.

وهذا يُذكِّرنا بكلمةٍ قالها التَّابعي البصري إيَّاسُ ابن معاوية رَحِمَهُ اللهُ: «لا تَنْظُرْ إلى عملِ الفقيه، ولكن سَلْهُ يَصْدُقْكَ»[3].

فـ«الإنسانُ لا ينبغي له أن يعتمد على عمل أحد حتَّى يتثبَّت فيه عن حكمه، إذ لعلَّ الرَّجلَ المعتمد عليه يعملُ على خلاف السُّنَّة»[4]، أو ناسيًا، أو ذاهلاً، أو متأوِّلاً، أو غير متأمِّلٍ ولا ناظرٍ، وإمَّا لأنَّ حالَه غير حالِه.

ولذلك «قالوا: «أضعف العلم الرُّؤية»: أن يكون رأى فلانًا يفعلُ فيفعل مثلَه، ولعلَّه فعلَه ساهيًا. وليس من هذا القبيل عمل أهل المدينة[5]، وما أشبه ذلك؛ لأنَّه دليل ثابت عند جماعة من العلماء»[6].

وعن إسحاق بن أبي الدَّرْدَاء، قال: حَجَّ مُسْلِمٌ الخَوَّاصُ فَلَقِيَ ابن عيينة رَحِمَهُ اللهُ في السُّوق فقال: كنتُ أحبُّ لُقِيَّكَ وما كنتُ أحبُّ أن ألقاك في هذا الموضعِ قال: فَأَنْشَأَ ابنُ عيينة يقول:

خُذْ بِعِلْمِي وَإِنْ قَصَّرْتُ فِي عَمَلِي
يَنْفَعْكَ عِلْمِي وَلَا يَضْرُرْكَ تَقْصِيرِي[7]

«وكثيرًا ما قد يفعلُ الرَّجل النَّبيلُ الشَّيءَ مع ذُهُوله عمَّا في ضِمْنِه من مفسدةٍ فإذا نُبِّهَ انْتَبَه»[8]. فلا ينبغي أن

(2) انظر: «فتح الباري» (576/2).

(3) ذكر ذلك كلٌّ من: شيخ الإسلام ابن تيمية في «بيان الدَّليل على بطلان التَّحليل» (ص: 76) و«مجموع الفتاوى» (227/22)، وتلميذه ابن قيِّم الجوزيَّة في «إعلام الموقِّعين» (84/5)، والشَّاطبي في «الاعتصام» (143/1) و«الموافقات» (315/5)، وأخرجه وكيع في «أخبار القضاة» (350/1)، وعمر بن شبة كما في «تهذيب الكمال» (433/3)، بلفظ: «لا تَنْظُرْ إلى ما يعملُ الفقيه ـ وفي رواية: ما يصنعُ العالم ـ، فإنَّه يصنعُ الأشياءَ يكرهُها، ولكن سَلْهُ يُخْبِرْك بالحقِّ».

(4) انظر: «الاعتصام» للشَّاطبي (143/3)، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في «الفتاوى الكبرى» (93/2ـ94): «ولا يُقْتَدَى في خلاف الشَّريعة بأحدٍ من أئمَّة الضَّلَالَة، وإن كان مشهورًا عنه العِلْمُ» اهـ، لأنَّ هذا هو الضَّلال بعينه، وللشَّاطبي في «الاعتصام» (144/3) كلمة ماتعة في ذلك؛ فلتراجع.

(5) وهذا في الجملة كما هو مقرَّر مفصَّل عند أئمَّة الشَّأن.

(6) انظر: «الاعتصام» للشَّاطبي (143/3)، و«إعلام الموقِّعين» (84/5).

(7) خرَّجه البيهقي في «المدخل إلى السُّنن» (842)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (116/8)..

(8) انظر: «بيان الدليل على بطلان التحليل» لابن تيمية (ص76).

يقتدى به فيما ذهل عنه، أو غفل.

ومع أنَّ أنس بن مالك رضي الله عنه وأمَّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها من أهل الاقتداءِ بحقٍّ، غير أنَّ ذلك لم يمنع أنسَ ابنَ سيرين رحمه الله، وسائل القاسم رحمه الله أن يستفسرا عن بعض فعلِهما.

ونكتة المسألة:

أنَّ العالم الدَّيِّنَ من أهل الفضل والاقتداء متى تَعَيَّنَ قصدُه إلى التعبّد بالفعل أو التَّرك، بالقرائن الدَّالَّة على ذلك، لا سيما في العبادات، ومع التَّكرار أيضًا، وهو من أهل الاقتداء بقوله؛ فالاقتداءُ بفعله كذلك.

أشار إلى ذلك الإمام الشَّاطبي رحمه الله تعالى أثناء كلام له على مسألة: «الاقتداء بالأفعال الصَّادرة من أهل الاقتداء»، ولوَّح إلى أنَّ الإمام مالكًا رحمه الله «يعتمدُ هذا العمل الَّذي يُفْهَمُ من صاحبه القصدُ إليه إذا كان من أهل العلم والدِّين، وغَلَبَ على الظنِّ أنَّه لا يفعلُه جهلاً ولا سهوًا ولا غفلةً؛ فإن كونه من أهل العلم المُقْتَدَى بهم يقتضي عملُه به، وتَحَرِّيه إيَّاه دليلٌ على عدم السَّهوِ والغفلة، وعلى هذا يجري ما اعتمد عليه من أفعال السَّلف، إذا تأمَّلتَها وجدتَها قد انضمَّت إليها قَرَائنُ عَيَّنَتْ قصدَ المُقْتَدَى به، وجهةَ فعله، فصَحَّ الاقتداءُ»[9].

ولعلَّ خيرَ مثال على ذلك: ما روى ابن أبي شيبة (26873) ط/عوامة: عن محمَّد بن يحيى بن حَبَّان قال: خرج رجلٌ مع معاذ، فجعل لا يَرَى أَذًى في الطَّريق إلاَّ نَحَّاهُ، فلما رأى ذلك الرَّجلُ جعلَ لا يَمُرُّ بشيءٍ إلاَّ نَحَّاهُ، فقال له: ما حملَك على هذا؟ قال: الَّذي رأيتُك تَصْنَعُ، قال: «أَصَبْتَ أو أَحْسَنْتَ، إنَّه مَنْ أَمَاطَ أَذًى عن طريق كُتِبَتْ له حَسَنَةٌ، ومَنْ كُتِبَتْ له حَسَنَةٌ دَخَلَ الجَنَّةَ».

ومعاذٌ رضي الله عنه إمامٌ سيِّدٌ، عالمٌ بالحلال والحرام بشهادة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم.

وما قال ابن وهب: ذكر مالكٌ القاسم ابن محمَّد، فقال: كان من فقهاء هذه الأمَّة، ثمَّ حدَّثني مالك: أنَّ ابن سيرين كان قد ثَقُلَ وتَخَلَّفَ عن الحجِّ، فكان يأمرُ من يَحَجَّ أن ينظر إلى هَدْيِ القاسم، ولَبُوسِه، ونَاحِيَتِه[10]، فَيُبَلِّغُونَه ذلك، فَيَقْتَدِي بالقاسم[11]. والقاسم رحمه الله كان صاحبَ سنَّةٍ ومن أعلم النَّاس بها.

إفادة:

وممَّا يدخل في هذه القاعدة، كلام العالم - إذا لم يكن بقصد الرِّواية، أو الفتوى، أو الحكم -، قال علاَّمة اليمن عبد الرَّحمن بن يحيى المعلمي رحمه الله: «وكلامُ العالم - إذا لم يكن بقصد الرِّواية، أو الفتوى، أو الحكم - داخلٌ في جملة عمله الَّذي ينبغي أن لا يُنْظرَ إليه. وليس معنى ذلك أنَّه قد يعملُ ما ينافي العدالةَ، ولكن قد يكون له عذرٌ خفيٌّ، وقد يترخَّص فيما لا ينافي العدالة، وقد لا يتحفَّظ ويتثبَّت، كما يتحفَّظ ويتثبَّت في الرِّواية والفتوى والحكم»[12].

ومن أجل مراعاة هذه «القاعدة السَّلَفِيَّة الشَّرِيفَة» وإعمالها في المطالب الدِّينِيَّة وجدنا النَّكِيرَ يَشْتَدُّ من أئمَّة

(9) انظر: «الموافقات» (5/315. 317).

(10) أي: جانبه. قال في «القاموس» مادَّة: (ن ح ي): النَّاحية والنَّاحاة: الجانب.

(11) انظر: «سير أعلام النُّبلاء» (5/56. 57)، و«تهذيب التَّهذيب» (8/334)، وأخرجه الخطيب في «الجامع» (10) من طريق: المعافى، عن مالك بن أنس، قال: قال ابن سيرين: «كانُوا يتعلَّمون الهَدْيَ كما يتعلَّمون العلم» قال: وبعث ابنُ سيرين رجلاً فنظر كيف هديُ القاسم وحاله.

(12) انظر: «آثار المعلمي» (9/178) و(10/90).

السَّلَفِ وأعلامِه على كلِّ مخالف لها أو متهاونٍ فيها كما سبق عن سفيان ابن عيينة رحمه الله.

☐ **أمَّا كونه «دعوةً إلى الاعتراف لأهل الفضل بفضلهم، وعدم عيبهم أو التَّقليل من شأنهم»:** فلقول القاسم «فإنَّ من النَّاس من لا يُعَابُ» وذلك لقلَّة عثراته ونُدْرِ خطئه ومخالفته.

فالعبرة بالغالب وبما كان عليه نَفَسُ المرء، فمن كان نفَسُه مع السنَّة والحقِّ والشَّرع علمًا وعملاً ودعوةً، وكان له في الإسلام تأثيرٌ ظاهر، فإنَّه يحتملُ له ما لا يحتمل لغيره، وتُسْتَرُ عيبتُه وتُغْفَرُ زلَّتُه.

قال ابن القيِّم رحمه الله: «...ومن له علم بالشَّرع والواقع؛ يَعلمُ قطعًا أنَّ الرَّجل الجليلَ الَّذي له في الإسلام قدمٌ صالح وآثارٌ حسنة وهو من الإسلام وأهله بمكانٍ قد تكون منه الهَفْوَةُ والزلَّة هو فيها معذورٌ بل ومأجورٌ لاجتهاده؛ فلا يجوزُ أن يُتَّبَعَ فيها، ولا يجوزُ أن تُهدَر مكانتُه وإمامتُه ومنزلتُه من قلوب المسلمين» اهـ[13].

قال سعيد بن المسيِّب رحمه الله: «ليس من عالم ولا شريف ولا ذُو فضل إلاَّ وفيه عَيْبٌ، ولكن من النَّاس من لا يَنْبَغِي أن تذكرَ عيوبُه، ومن كان فضلُه أكثرُ من نقصه ذهبَ نقصُه لفضله»[14].

وصنيع القاسم رحمه الله هذا: يُنْبِئ عن أدب جمٍّ، ويكشفُ عن خلق كريم، وشدَّةِ احترام وتقدير، وإجلالٍ وإكرام لـ «أفقه النَّاس، وأحسنِ النَّاس رأيًا في العامَّة»[15] أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وهو أدبٌ كان يحرصُ القاسم رحمه الله على نشره وبثِّه في النَّاس عامَّة وتَلْقِينه طلاَّبه خاصَّة، روى الحافظ أبو زرعة الدِّمشقي في «تاريخه» (1009) قال: حدَّثنا عُبَيْدُ بن حبَّان عن مالك قال: بلغني عن القاسم بن محمَّد كلمةٌ أعجبتني، وذاك أنَّه قال: «من الرِّجالِ رجالٌ لا تُذْكَرُ عيوبُهم».

وهو عند أحمد في «الزُّهد» (578) «زهد أبي بكر الصدِّيق»: عن يحيى ابن سعيد، عن القاسم قال: «من النَّاسِ نَاسٌ لا تُذْكَرُ عيوبُهَم».

ولست أقصدُ هنا إملاءَ تلك الآداب الَّتي ينبغي أن يتحلَّى بها المسلم عمومًا والسَّلفيُّ السُّنِّي ـ طالبُ العلم ـ خصوصًا اتِّجاه أهل الفضل والعلم ممَّا هو مُودَعٌ في كتب «آداب العالم والمتعلِّم»، ولكنَّ التَّنبيه والتَّذكيرَ والإشارةَ إلى ما كان عليه سلفُنا وخِيرَةُ أمَّتنا من الأدب الكريم والخلق الجميل قِبَلَ كبرائهم وفضلائهم.

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ إِجْلاَلِ اللهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ المُسْلِم، وَحَامِلِ القُرْآنِ غَيْرِ الغَالِي فِيهِ وَالجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ المُقْسِطِ»[16].

وقال طاووس بن كيسان رحمه الله: «من السُّنَّة أن يُوَقَّرَ أربعةٌ: العالمُ، وذو الشَّيْبَة، والسُّلطانُ، والوالدُ»[17].

والله تعالى أعلى وأعلم، والحمد لله ربِّ العالمين.



(13) انظر: «إعلام الموقِّعين» (235/5)، وفيه فصل ماتع في تقرير هذا المبدأ فانظره غير مأمور.

(14) انظر: «جامع بيان العلم» (820/2)، و«التَّمهيد» (170/11) لابن عبد البر.

(15) كما قال عطاء بن أبي رباح رحمه الله، انظر: «تاريخ الإسلام» للذَّهبي (509/2).

(16) أخرجه أبو داود (4843).

(17) انظر: «شرح السُّنَّة» للإمام البغوي رحمه الله (41/13).

سيرة وتاريخ



موقعة الزّلاّقة بالأندلس... دروس وعبر

إبراهيم بن حليمة
إمام خطيب ـ الجزائر

قد يعجب بعضهم من ذكر ظَفَرٍ قديم للمسلمين مضى عليه نحو ألف سنة إلاَّ خمسين عامًا، والإشادة بهذا الانتصار في زمن تكالَبَتْ فيه أممُ الكفر على المسلمين في كلِّ أقطار الأرض، وتداعَوْا عليهم كما تداعى الأكلةُ إلى قصعتها، وكثيرٌ من المسلمين غافلون عمَّا يُكادُ لهم، فتجد بعضهم أنفسهم أداةً في أيدي غيرهم، يُنفِّذون خططَ أعدائهم بأيديهم وهم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعًا، وكثيرٌ منهم أنِسوا بالذِّلَّة الَّتي سَلَّطَها الله عليهم منذ ابتعدوا عن دينهم، ولن ينزِعَها عنهم حتَّى يرجعوا إليه ويَتمسَّكُوا به، حينها ترجع إليهم عزَّتُهم ويهابهم عدوُّهم.

يعجب بعضهم من التَّحدُّث عن النَّصر في زمن أصاب فيه الإحباطُ كثيرًا من المُصلحين فضلاً عن غيرهم، لما يرَوْنَه من حال أُمَّتهم وهي تَغطُّ في سُبات عميق، والأرجاسُ ينالون من الرَّسول الكريمِ ـ عليه أفضل الصَّلاة وأزكى التَّسليم ـ وينتقصونَه في كلِّ وقتٍ وحين... وهلُمَّ جرًّا إلى الأمور الَّتي تبعث على الأسى والحزن.

ﮪﮫﮬ

ففي هذا اللَّيلِ الطَّويلِ البهيمِ المُحلَوْلِك، نريد أن نوقِد شمعةً نقرأُ في شعاع ضوئِها بواعثَ الأمل، ونتنسَّم من خيط دُخانها تباشيرَ النَّصر، من أجل ذلك نكتُبُ عن النَّصرِ والظَّفَر، تأسِّيًا بسيِّد البشر ﷺ الَّذي يقولُ لنا ربُّنا جلَّ شأنُه عنه: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب]، وكان ذلك يومَ تحالفت قبائلُ الكفر ضدَّه ﷺ وصحبِه وحاصرُوهم بالمدينة، وقد حفر المسلمون خندقًا عظيمًا حول المدينة، وكان قد أشار بحفره سلمان الفارسي رضي الله عنه على رسول الله ﷺ فأخذ بمَشورَتِه، والصَّحابةُ يشتكون المَخمَصَةَ والبردَ، والنَّبيُّ ﷺ معصوبُ البطن بحجَر، ففي هذه الحال العصيبة يُبشِّرُ ـ صلواتُ ربِّي وسلامُه عليه ـ أصحابَه بمفاتيح الشَّام وفارس واليمن[1]!

فإن قال قائلٌ: الحال غيرُ الحال، والرِّجال غير الرِّجال؟

قلنا: أليس الَّذي نصَرَ الرَّسول ﷺ وصحبَه في هذه الغزوة وفي غيرها، ونصر المسلمين في اليرموك والقادسيَّة والزَّلاَّقة وغيرها من المشاهد العظيمة؛ أليس ذلك بقادر على نصر هذه الأمَّة إن صدق عزمُها واشتدَّ حزمُها، ورجعت إلى ربِّها وتمسَّكَتْ بدينها؟ بلى والله! ولله الأمرُ من قبلُ ومن بعد.

ﮪﮫﮬ

ومعركةُ الزَّلاَّقة الَّتي نكتب عنها اليومَ من المعارك العظيمة الَّتي يأخُذُ بالألباب وصفُها، ويغمُرُ القلوبَ بالفرح والسُّرور شرحُها، ولأجل هذا قال الحِميَري ـ مُعتَذرًا عن تطويله في شرحها ـ: «خالفتُ بشرح هذه الوقيعة شرطَ الاختصار، لحلاوة الظَّفَر في وقت نزول الهِمَم ووقوعها في الزَّمَن الخامل، والله سبحانه يفعل ما يشاء

(1) روى الحديث أحمد (18694)، والنَّسائي في «الكبرى» (8806) عن البراء بن عازب، وحسَّن إسنادَه الحافظُ ابنُ حجر في «الفتح» (7/458). وروى أصل القصَّة البخاري (4101) عن جابر رضي الله عنه.

وهو المستعان»[2].

واعجبْ له وهو يتَحدَّثُ عن نزول الهمم في زمانه، فكيف به لو أدرك زمانَنا؟! فإلى الله المشتكى، وهو المستعان على تغيُّر الأحوال! ولعلَّ الله يُحدِثُ بعد ذلك أمرًا.

꧁꧂

تُعتَبر معركةُ الزَّلَّاقة بالأندلس من أعظم المعارك الحاسمة في التَّاريخ الإسلامي، وهي الَّتي يقول عنها ابنُ سماك العاملي: «ولم تكنْ في الأندلس غزوةٌ أعظمَ منها»[3]، ويقول عن يومها: «وكان يومًا لم يُسمَعْ بمثله من يوم اليرموك والقادسيَّة»[4]، ويصفُها ابنُ أبي زرع بقوله: «وكانت هذه الهزيمةُ العظيمةُ على أعداء الكفرة من أعظم الوقائع»[5]، وذلك أنَّ أَلْفُونْسُو[6] السَّادس مَلِكَ قشتالة لمَّا أطاح بطُلَيْطِلَة وانتزعها من أيدي المسلمين سنة (478هـ)[7]؛ طَمِع في الاستيلاء على الجزيرة كُلِّهَا، وكتب كتابًا مليئًا بالغرور والسُّخرِيَة إلى المُعتَمِد ابن عبَّاد صاحب إشبيلية كبيرِ ملوك الأندلس، يُظهرُ له فيها السُّرورَ بالغلب، ويَطلُبُ منه تسليمَ أعماله[8]، فردَّ عليه ابنُ عبَّاد برسالة نظمًا ونثرًا، منها قولُه:

«الذُّلُّ تأباه الكرامُ ودينُنا
لكَ ما تَدينُ به من البَأْساءِ

سمناك سلمًا ما أردتَّ وبعد ذا
نغزوكَ في الإصباح والإمساءِ»[9]

ولم تَزَل الحالُ بين المعتمد وألفونسو تعظُمُ وتشتَدُّ[10]، إلى أن وجَّهَ ألفونسو رسولَه لقبض الجِزيَة كعادَتهم ومعه اليهودي ابنُ شالب، فزاد هذا اليهوديُّ في الكلام ونقص، وأساء الأدبَ، فكان حتفُه في سلاطة لسانه، وجنى على مَنْ معه بأسر المُعتَمِد لهم، فلمَّا بلغ ذلك أَلْفُونْسُو؛ أقسم بالأيمان المغلَّظة أن يَحشُدَ من الرُّوم عددَ شعر رأسه، ويصل بهم إلى بحر الزُّقاق، فاحتاج حينئذ ابنُ عبَّاد إلى استصراخ يوسفَ ابن تَاشْفِين واستدعائه بالجواز إلى الأندلس[11]، وكان قد استشار المُعتَمِد في ذلك ابنَه الرَّشيد، فأجابه قائلاً: «يا أبَت! أتُدخل علينا من يَسلُبُنا مُلكَنا ويُبدِّدُ شملَنا؟!» فقال له: «أي بنيَّ، والله لا يُسمَعُ عنِّي أبدًا أنِّي أعدتُ الأندلسَ دارَ كُفر، ولا تركتُها للنَّصارى، فتقومَ عليَّ اللَّعنةُ في منابر الإسلام مثلَما قامت على غيري»[12]، وبمثل ما أشار به الرَّشيدُ على أبيه أشارَ ملوكُ الطَّوائف بالأندلس على المُعتَمد؛ بعدم استصراخ يوسف لئلاَّ يَنتزِعَ الأندلُسَ من أيديهم، فأجابهم بكلمته السَّائرة مثلاً: «رَعْيُ الجمال والله عندي خيرٌ من رَعي الخنازير»[13].

وهذا الموقفُ الحميدُ من المُعتَمد ابن عبَّاد حريٌّ ـ والله ـ بالذِّكر وجديرٌ بالشُّكر، ولا نحسَبُ أنَّه صنَع هذا إلاَّ



ابتغاءَ مرضاة الله، وأن يَحفَظَ اللهُ بلادَ المسلمين من تَسلُّط المُشركين، فشكرَ اللهُ له صنيعَه وعفَا عن زَلاَّته.

وحينما وصل الكتابُ من المُعتَمد إلى أمير المسلمين يستصرخُه؛ أسرَعَ في إجابة طلَبته، وقال له: «أنا أوَّلُ مُنتَدَب لنُصرَةِ هذا الدِّين، ولا يَتولَّى هذا الأمرَ أحدٌ إلاَّ أنا بنفسي»[14]، وأخذَ يُوسُفُ في أُهبَة العبور إلى الأندلس، واستنفرَ من قَدَرَ على استنفاره من القُوَّاد وأعيان الجند، فجاءه عددٌ كثيرٌ من الجند رجالاً ورُكبانًا، فعبر البحرَ بعسكر ضَخم ونزَلَ الجزيرةَ الخضراءَ، وأمر بعبور الجمَال، فعَبَرَ منها ما أغصَّ الجزيرةَ وارْتَفَعَ رُغاؤُها إلى عَنان السَّماء، ولم يكنْ أهلُ الجزيرة رَأَوْا قطُّ جملاً، ولا كانت خَيلُهُم قد رأَتْ صُوَرَها ولا سَمعتْ أصواتَها، وكانت تَذعُرُ منها وتَقلَقُ، ومن أجل هذا أحضرَها يوسفُ، فقد كانت خيلُ الفِرَنْج في الحرب تَحجُم عنها[15].

فلمَّا عبرَ يوسف بمن معه تَلقَّاه المُعتَمِد في وُجوه أهلِ دولَته، وتصَافَحا

(2) «الرَّوض المعطار» للحميري (ص292).
(3) «الحلل المُوشيَة في ذكر الأخبار المراكشيَّة» (ص121).
(4) المصدر نفسه.
(5) «الأنيس المُطرب بروض القرطاس، في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس» (ص149).
(6) تذكره بعض المصادر بـ: «الفنش»، وبعضها بـ: «الأذفنش».
(7) «الحلل الموشية» (ص96)، «التَّاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتَّى سقوط غرناطة» لعبد الرحمن بن علي الحجي (ص421).
(8) «الحلل الموشية» (ص90).
(9) «الحلل الموشية» (ص91).
(10) «الأنيس المطرب بروض القرطاس» (ص152).
(11) «الحلل الموشية» (ص93ـ95).
(12) «الحلل الموشية» لابن سماك (ص100).
(13) «الرَّوض المعطار» للحميري (ص288)، «وفيات الأعيان» لابن خلِّكان (7/115)، «نفح الطِّيب» للمَقَّري (4/359).
(14) «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» للمرَّاكشي (ص92).
(15) «وفيات الأعيان» لابن خلِّكان (7/116).



وتعانقا، وشكرا نِعَمَ الله وتواصيا بالصَّبرِ والرَّحمة، وتَضرَّعا إلى الله أن يَجعَلَ جهادَهما الكُفَّارَ خالصًا لوجهه مُقرِّبًا إليه»[16]، ثمَّ فصل يوسفُ عن الجزيرة الخضراء بجُيوشه قاصدًا شَرقيَّ الأندلس، وسألَه المُعتَمد دخولَ إشبيلية ليستريحَ فيها أيَّامًا، فأبى عليه وقال: «إنَّما جئتُ ناويًا الجهادَ، فحَيثُما كان العدوُّ تَوجَّهتُ وَجهَه»[17].

وكان عدوُّ الله أَلْفُونْسُو قد أرسل قبلُ رسالةً إلى ابنِ تاشفين تطفَحُ تهكُّمًا، وممَّا قال له فيها: «...وبلغنا عنك أنَّكَ في الاحتفال على نيَّة الإقبال، فلا أدري أكان الجُبنُ يُبطئُ بك أو التَّكذيبُ بما أُنزلَ عليك، فإن كُنتَ لا تستطيع الجوازَ فابْعَثْ إليَّ ما عندَك من المراكبِ لأَجُوزَ إليك، وأُقَاتلَك في أحبِّ البقاعِ إليكَ!...»، فأجابه أميرُ المسلمين على ظهر كتابه: «جَوابُك يا أُذْفُنْش ما تراه لا ما تسمَعُه إن شاء الله!» وأردف الكتابَ ببيت أبي الطَّيِّب المُتنبِّي:

ولا كتب إلاَّ المشرفيَّة والقنا

ولا رسل إلاَّ الخميس العرمرم»[18]

وفي بعض المصادر أجابه بقوله: «الَّذي يكونُ ستراه»، فلمَّا وقفَ عليه أَلْفُونْسُو ارتاعَ له وعَلِمَ أنَّه بُلِيَ برَجُلٍ لا طاقةَ له به[19]، وقال: هذا رجل عازمٌ[20]!

ولمَّا تحقَّق أَلْفُونْسُو جوازَ يُوسُفَ استنفر جميعَ أهلِ بلاده وما يليها وما وراءَها، ورفعَ القِسِّيسُون والرُّهبان والأساقفةُ صُلبَانَهم ونَشرُوا أناجيلَهم، فاجتمع له من الجلالقة والإفرنجة وما يليهم ما لا يُحصَى عددُه»[21].

أحداث المعركة

قَرُبَ صبحُ الظَّفر ودَنَتْ ساعةُ النَّصر، وسار أميرُ المسلمين إلى بَطَلْيُوس ومعه ابنُ عبَّاد في قُوَّات إشبيلية وقُرطُبة، بعدما كاتَب سائرَ ملوك الطَّوائف للَّحاق به والمشاركة في الجهاد في سبيلَ الله[22]، وأمدَّ ملوكُ الجزيرة يوسفَ والمُعتَمدَ بما قَدرُوا عليه من خيلٍ ورجال وسلاح، فتكامل عددُ المسلمين زُهاءَ عشرينَ ألفًا[23]، وتقدِّرُ بعضُ الرِّوايات أنَّ جيشَ المسلمين كان في نحو ثمانيةً وأربعين ألفًا، وجيشَ النَّصارى في خمسين ألفًا، وقدَّرته بعضُها بثمانين ألفًا[24]، واتَّفقَ الكلُّ أنَّ عُدَّةَ المسلمين كانت أقلَّ من عُدَّة المشركين[25].

وصلت جيوشُ المسلمين إلى سهلٍ يقع شمالَ بَطَلْيُوس على مَقرُبَة من حدود البُرتُغَال الحالية؛ يدعى سهل الزَّلاَّقة، واستقرَّت جيوشُ النَّصارى في مكانٍ يَبعُد نحو ثلاثة أميالٍ عن المُعسكَرِ الإسلامي، يَفصلُ بينَهما فرعُ نهر وادي يانه[26]، وجمع يوسف أصحابَه ونَدَبَ لهم من يَعظُهم ويُذَكِّرُهم، فظهَرَ منهم من صِدْقِ النِّيَّة والحرصِ على الجهادِ

(16) «الرَّوض المعطار» للحميري (ص289).
(17) «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» للمرَّاكشي (ص93)، وتشير بعضُ الرِّوايات إلى أنَّه مَكَثَ بإشبيلية ثلاثةَ أيَّام، انظر: «مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام» لمحمَّد عبد الله عنان (ص273).
(18) «الحلل الموشية» لابن سماك (ص97 ـ 98).
(19) «نفح الطِّيب» للمقَّري (4/361).
(20) «وفيات الأعيان» لابن خلِّكان (5/29).
(21) «الرَّوض المعطار» للحميري (ص289).
(22) «مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام» لمحمَّد عبد الله عنان (ص284).
(23) «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» للمرَّاكشي (ص94).
(24) «مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام» لمحمَّد عبد الله عنان (ص285).
(25) «الرَّوض المعطار» للحميري (ص289).
(26) «مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام» لمحمَّد عبد الله عنان (ص284 ـ 285).

واستسهال الشَّهادة ما سُرَّ به يوسفُ والمسلمون[27].

أرسلَ يوسفُ إلى أَلْفُونْسُو كتابًا على مُقتضى السُّنَّة، يَعرضُ عليه فيه الدُّخولَ في الإسلام أو أداءَ الجزية أو الحربَ، من فصوله: «وقد بلغنا يا فنش (كذا!) أنَّك دَعوْتَ إلى الاجتماع بك، وتَمنَّيْتَ أن تكونَ لك فُلكٌ تَعبُرُ البحرَ عليها إلينا، فقد اجتزنا إليك، وجمعَ اللهُ في هذه العرصة بيننا وبينك، وسترى عاقبةَ دُعائك، ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الرعد]»[28].

ولمَّا وصل الكتابُ إلى أَلْفُونْسُو، جاش بحرُ غَيظه، وزاد في طُغيانه وكُفره، ثمَّ كتبَ إلى يوسفَ مكرًا منه وخديعةً: إن غدًا يومَ الجمعة عيدُكم، ولا نُحبُّ مُقاتَلَتكم فيه، وبعدَه السَّبتُ عيدُ اليهود، وهم كثيرٌ في مَحلَّتنا ونحن نفتقرُ إليهم، وبعدَه الأحدُ عيدُنا، فنحترمُ هذه الأعياد ويكون اللِّقاءُ يومَ الإثنين[29]، وقد تفطَّنَ المُعتَمِد بنُ عبَّاد لهذه الخديعة، فلم يَأمَنْ مَكرَه، وقال ليوسف: «إنَّما يُريدُ غدرَ المسلمين فلا تَطمَئِنَّ إليه، ولْيَكُن النَّاسُ على استعداد له طولَ يوم الجمعة»، وبعد هزيعٍ من اللَّيل انتبه الفقيهُ النَّاسكُ أبو العبَّاس أحمد بن رميلة القرطبي - وكان في محلَّة ابن عبَّاد - فرحًا مسرورًا، يقول إنَّه رأى النَّبيَّ ﷺ فبشَّرَهُ بالفتح والشَّهادة له في صبيحة غد! وتأهَّبَ ودعا ودهنَ رأسَه وتَطيَّبَ! وانتهى ذلك إلى ابن عبَّاد، فبعث إلى يوسف يُخبرُه بها تحقيقًا لما توقَّعه من غدر أَلْفُونْسُو[30]،

وما كاد يَتنفَّسُ صُبحُ يوم الجمعة، حتَّى زَحَفَ النَّصارى بمقدِّمَة الجيش الَّتي يقودها أَلْبَارْ هَانيس، على مُقدِّمَة جيش المسلمين المؤلَّفة من القُوَّات الأندلسيَّة، والَّتي يقودُها ابنُ عبَّاد[31]، ولم يَثبُتْ في وجه هذا الهجوم العنيف سوى المُعتمد وفرسان إشبيلية، وفرَّ غيرُهم إلى بَطَلْيُوس، وأشرفَ المسلمون على الهزيمة، وأُثخنَ المعتمدُ جراحًا، لكنَّه أظهرَ بسالةً وشدَّةَ بأس مُنقَطعَةَ النَّظير، وأبلى في المشركين بلاءً حسنًا، واستبطأ المعتمدُ يوسفَ، وعضَّته الحربُ واشتدَّ البلاءُ وأبطأَ عليه الصَّحراويُّون، وساءت ظنونُ أصحابه[32]، وفي هذا الوقت وافتْه أُولى طلائع ابن تَاشْفين يقودُها دَاودُ بنُ عائشة، غيرَ أنَّ أَلْفُونْسُو قد هاجم هذه المُقدِّمَةَ كذلك، وردَّها أيضًا عن مواقعها، بَيْدَ أنَّها نَفَّسَتْ شيئًا ما عن المُعتَمد.

في هذه الآونة العصيبة، دفع يوسُفُ بقوَّات البَرْبَر الَّتي يَقودُها أَبْرَعُ قُوَّاده، وهو سَيرُ بنُ أَبي بَكْر اللَّمْتُوني، لإنجاد الأندلسيِّين والمُرابطين معًا، وسرعانَ ما تغيَّرَ وجهُ المعركة ورَجَحَتْ كفَّةُ المسلمين، ولجأ يوسفُ إلى خطَّة مُبتَكَرَة؛ إذ تقدَّمَ في قوَّاته الاحتياطيَّة من لَمْتُونَة وصَنْهَاجَة، وتجاوز النَّصارى الهاجمين، وقام بحركة التفاف سريعة باغَتَ فيها مُعَسْكَرَ الأعداء، وأحرقَ الخيامَ وأبادَ الحُرَّاس، وطُبولُه تَضربُ من حول جَيشه بشدَّة، فتَبُثُّ الفزعَ في صفوف النَّصارى، وتَزرَعُ الرُّعبَ في قلوبهم، ما أحدثَ بلبلةً في صفوف أَلْفُونْسُو،

الَّذي تَوقَّف عن مطاردة الأندلسيِّين وارتدَّ ليُنقذَ مُعسكرَه، فاصطدَمَ بمُؤخِّرَة المُرابطين، وانقضَّ يوسُفُ على جُموعه، ودام القتالُ الذَّريعُ بين الجَمْعَيْن بضعَ ساعات، ووقْعُ الطُّبول يُصِمُّ الآذانَ، ويُذهلُ الأذهانَ!

وكانت قاصمةُ الظَّهر حين دفع يوسف بحرسه وقوامُهم أربعةُ آلاف مُقاتل إلى قلب المعركة، واستطاعَ أحدُهم أن يَصِلَ إلى مَلِك قَشْتَالَة، فطعَنَه بخنجَر في فَخذه طعنةً نافذةً، وكانت الشَّمسُ قد أشرَفَتْ على المغيب، فتراجع أَلْفُونْسُو ومن معه واعتصموا بتلٍّ قريب حتَّى دخل اللَّيل، ففرُّوا في نحو أربعمائة أو خمسمائة فارس، مُعظَمُهم جَرْحى، وأمر يوسُفُ بوقف المُطاردة[33].

النَّتائج والدُّروس

انجلى غبارُ هذه المعركة العظيمة الَّتي نصَرَ اللهُ فيها المسلمين، ودحر المشركين، وذلك يومُ الجمعة الثَّاني عشر من رجب، وقيل الخامس عشر، وقيل في العشرين منه، وقيل في شهر رمضان، سنة تسع وسبعين وأربعمائة[34]، وقال ابنُ خلدون: «سنة إحدى وثمانين»[35]! ووهم أبو شامة المقدسي فذكرها في حوادث سنة

(27) «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» للمرَّاكشي (ص94).
(28) «وفيات الأعيان» لابن خلِّكان (116/7)، «الحلل الموشية» لابن سماك (ص114).
(29) «الحلل الموشية» لابن سماك (ص115).
(30) «الرَّوض المعطار» للحميري (ص290).
(31) «مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام» لمحمَّد عبد الله عنان (ص286).
(32) «الرَّوض المعطار» للحميري (ص291).
(33) «الرَّوض المعطار» للحميري (ص291)، «مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام» لمحمَّد عبد الله عنان (ص286 - 287)، «تاريخ المسلمين في الأندلس» لمحمَّد سهيل طقوش (ص489).
(34) «وفيات الأعيان» لابن خلِّكان (117/7)، و(29/5)، «الرَّوض المعطار» للحميري (ص288).
(35) «العبر» لابن خلدون (1823/2).

إحدى وتسعين وخمسمائة[36]! والمعركة الشَّهيرةُ الَّتي وقعت في هذه السَّنة إنَّما هي معركةُ الأرك، وبطلُها يعقوبُ المنصورُ بنُ يوسف بن عبد المُؤمن ثالثُ أمراء المُوحِّدين، وهي انتصارٌ آخر للمسلمين على النَّصارى حقيقٌ بالفخر وجديرٌ بالذِّكر.

لقد هلك في موقعة الزَّلَّاقة أكثرُ جيش النَّصارى، ولم يَبْقَ منهم في أكثر الرِّوايات سوى أَلْفَيْ رجل أُثخنَ معظمُهم جراحةً، وهو ما تُفيدُه رسالةُ أمير المسلمين إلى المعزِّ ابن باديس صاحب إفريقيَّةَ، وكان عددُهم خمسين ألفًا، أو ثمانينَ ألفًا على بعض الرِّوايات، وبالغت رواياتٌ أخرى فقدَّرَتْهم بثلاثمائة ألف! وطُعِنَ كبيرُهم أَلْفُونْسُو في فَخذه طعنةً نافذةً، بقي أثرُها عليه بعد المعركة.

وقد أفضى من المسلمين إلى رحمة ربِّهم زهاء ثلاثةُ آلاف رجل، تقبَّلهم الله في الشُّهداء، وجُرِحَ آخرون، وعلى رأسهم المُعتَمد ابنُ عبَّاد الَّذي أنهكَتْه الجراحُ في ساحة الوغى، وصبر صبرًا شديدًا، وآخرون لا نَعلمُهم ولكنَّ اللهَ يعلمهم!

ذاعت أنباءُ النَّصر في جَنَبَاتِ الأندلس، واستبشر المسلمون في شبه الجزيرة بما أتاهم الله من عزيز نصره، وتجاوَبَتْ أصداءُ النَّصر في سائر مُدُن المغرب وإفريقيَّةَ، وعمَّ الفرحُ والبِشْرُ والسُّرورُ، وأَخرَجتِ النَّاسُ الصَّدقات وأعتقوا الرِّقاب.

إنَّ وقعةَ الزَّلَّاقة هي نتيجةٌ حتميَّةٌ لتكالب النَّصارى على الإسلام وأهله، بل هي صفحةٌ من الحروب الصَّليبيَّة الَّتي وُلِد لقيطُها بالأندلس ونشأَ وترعرع بالمشرق، يُؤيِّدُ هذا دعوةُ القساوسة والرُّهبان إلى هذه الحرب، وحملُهم الصُّلبان والأناجيلَ، فاكتوَوْا بنارها وتجرَّعوا سُمَّها، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [سُورَةُ الأَنفَالِ].

تُعتَبر هذه المعركةُ تطويلًا في عُمُر الإسلام بجزيرة الأندلس، فقد بقيَ الإسلامُ بها أربعةَ قرون أخرى، وكانت على وَشك انتزاع النَّصارى لها، وإرجاعها في حظيرة الكفر، ولكنَّ الله سلَّم.

إنَّ الَّذي صنَعَتْه روحُ الإيمان بالمُرابطين هو الَّذي أَسْفَرَ عن مثل هذا الظَّفَر العظيم، والحفاظ على الإسلام في رُبوع الأندلس، فكانوا على قَلْبِ رجلٍ واحد، غايَتُهم توحيدُ المسلمين تحتَ رايةٍ واحدة، وهمُّهم إعزازُ دولة الإسلام، فنَصَرَهم الله بعُمق إيمانهم ووحدَة صفِّهم، ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [سُورَةُ مُحَمَّدٍ].

لقد نَخرَ التَّفرُّقُ في جسم المسلمين بالأندلس، حتَّى كادت الأندلسُ تذهَبُ من أيديهم وهم يَنظُرون، وهكذا كلُّ تَفرُّق وتَمزُّق آيلٌ أمرُه إلى الفَشل وذهاب الرِّيح، ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [سُورَةُ الأَنفَالِ].

□□□

وفي الختام، ندعو العليَّ القديرَ أن يُعيدَ الأندلسَ إلى حظيرة الإسلام، وأن يَجمَعَ كلمةَ المسلمين على ما فيه صلاحُهم، ويوفِّقَهم للتَّمسُّك بما فيه نصرُهم وفلاحُهم، ويردَّهم إلى دينهم ردًّا جميلًا كسابق عهدهم، ويعيد لهم تليدَ عزِّتهم وسالفَ مَجدهم، هو مولانا فنِعْمَ المولى ونِعْمَ النَّصير.

(36) «المُذَيَّل على الرَّوضَتَيْن» لأبي شامة المقدسي (62/1)، دار الرِّسالة العالميَّة.





إرضاء الله وإرضاء الخلق

عمر الحاج مسعود

إنَّ حقيقةَ الإخلاص هي أن يريد العبدُ بعلمه وقوله وعمله ودعوته وجهَ الله الكريم، ولا يبتغي رياسةً ولا جاهًا ولا يطلب جزاءً وشكورًا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾، ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾، ويجتهد كذلك في معرفة مواضع رضا الرَّبِّ ـ عز وجل ـ ويلزمها، ولا يغرُّه مدحُ مادحٍ ولا يضرُّه ذمُّ ذامٍّ، قال بعضُهم: «الإخلاصُ تصفيةُ الفعل عن ملاحظة المخلوقين».

والمخلصُ يُؤْثِرُ رضا ربِّه على رضا غيره كائنًا من كان، ويسعى لذلك ولو سخط عليه جميعُ الخلق، ولا يبالي بلوم اللائمين، فالخيرُ كلُّ الخير في رضا الله، والشَّرُّ كلُّ الشَّرِّ في سخطه، قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾، وقال: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾، هذا مدحٌ لأبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه [1] ولكلِّ مؤمنٍ يعمل العملَ وينفق النَّفقةَ ولا يقصد مكافأةً ولا جزاءَ معروفٍ سَلَفَ، لكنَّه يفعل ذلك إرضاءً لربِّه وطمعًا في رؤية وجهه.

وهذه هي منزلةُ النَّبيِّين والصِّدِّيقين، فنبيُّنا مُحمَّدٌ ﷺ قاوَمَ جميعَ النَّاس، وتحمَّل عداوتَهم وأذاهم، وآثر رضَا مولاه على رضَاهم، وتَجَرَّد للدَّعوَة إلى توحيد الله وإعلاء كلمته وجهاد أعدائه حتَّى يكونَ الدِّينُ كلُّه لله، كان هذا هو هَمَّهُ وسَعْيَه حتَّى أكمل الله دينَه وأتمَّ نورَه ونصر جندَه وخذل عدوَّه، وكذلك فَعَلَ أصحابُه رضي الله عنهم معه ومَنْ بعده، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾، تحمَّلوا جميعَ المشاقِّ، وفارقوا أوطانَهم



(1) قال أهل التَّأويل: نزلَتْ في أبي بكر رضي الله عنه بعتقه مَن أعتقَ من المماليك ابتغاءَ وجه الله، حتَّى إنَّ بعضَهم حكى الإجماعَ من المفسِّرين على ذلك، انظر الطَّبري (479/24)، وابن كثير (422/8).

وعادَوا أقوامَهم واختاروا رضوانَ ربِّهم على سخطهم، ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [سورة الحشر].

وأغلبُ النَّاس لا يمكن إرضاؤهم إلاَّ بموافقتهم على الحقِّ والباطل، فإرضاؤهم أمرٌ لا يُنالُ ولا يُدرَك، قال الشَّافعي للرَّبيع بن سليمان - رحمهما الله -: «يا ربيع، رضا النَّاس غايةٌ لا تُدرَكُ، فعليك بما يُصلِحُكَ فالْزَمْه؛ فإنَّه لا سبيلَ إلى رضاهم» رواه أبو نعيم في «الحلية» (9/123).

ثمَّ إنَّهم يتغيَّرون ويَنقَلبون، وسَخطُهم واقعٌ ما له من دافع؛ لأنَّهم يتَّبعون أهواءَهم وينتصرون لحظوظ أنفُسهم، تجد أحدَهم اليومَ راضيًا وغدًا ساخطًا، فاختيارُ سخطِهم مع الظَّفَر برضا الله خيرٌ من اختيار سخطِهم مع سخط الله عزَّ وجلَّ.

ومتى راقبهم الإنسانُ وراعاهم والْتَمَس رضاهم وطلب ثناءَهم بسخط الله، ولم يُراعِ حقَّه ورضاه، تعب وتشتَّت بالُه وتنكَّد عيشُه ولم يَنَلْ شيئًا، بل انقلبوا ضدَّه وسخط عليه ربُّه.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَى اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَى النَّاسَ عَنْهُ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ» رواه ابن حبَّان (276)، وسنده حسن.

وكتب سفيانُ الثَّوري إلى ابن أبي ذئب - رحمهما الله -: «فَإِنَّكَ إِنِ اتَّقَيْتَ اللهَ كَفَاكَ النَّاسَ، وَإِنِ اتَّقَيْتَ النَّاسَ لَمْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، فَعَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ» رواه أبو نعيم في «الحلية» (7/ 68).

وقال ابنُ القيِّم رحمه الله في «مدارج السَّالكين» (2/300): «وقد جرت سُنَّةُ الله الَّتي لا تبديلَ لها أنَّ من آثر مرضاةَ الخلق على مرضاته أن يُسخِطَ عليه مَن آثر رضاه، ويخذلَه من جهته ويجعلَ محنته على يدَيْه، فيعود حامدُه ذامًّا، ومَن آثر مرضاتَه ساخطًا، فلا على مقصوده منهم حصَل، ولا إلى ثواب مرضاةِ ربِّه وصَل».

وعلى هذا، فمن أراد سعادةَ العيْش وراحةَ البال فليجعلْ نُصبَ عينيه إرضاءَ ربِّه وإخلاصَ الدِّين له، وليَضْرِبْ برضا النَّاس وسخطِهم عُرضَ الحائط؛ فإنَّهم لن ينفعوه ولن يضرُّوه مثقالَ ذرَّة، ومن آثر ربَّه ورضاه كفاه خلقَه وصرفَ عنه سخطَهم، وعاد ذامُّه مادحًا والسَّاخطُ عليه راضيًا.

قال ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (3/233): «المؤمنُ لا تكون فكرتُه وقصدُه إلا رضا ربِّه واجْتنابَ سخطه، والعاقبةُ له، ولا حوْلَ ولا قوَّةَ إلاَّ بالله».

وهذا - وايْمُ الله - من أعزِّ الأشياء وجودًا - وبخاصَّة في باب العلم والدَّعوة - وأصعبِها نَيْلاً وأقلِّها تحقيقًا، فقد يعمل الإنسان أو يتكلَّم أو يسكت إرضاءً لبعض النَّاس، وموافقةً لهم وتزلُّفًا إليهم وطلبًا لتزكيتهم، وحذرًا من أن يسقط من أعيُنهم واجتنابًا لذمِّهم وطَعنهم، حتَّى ولو كان يَعتقدُ خطأَهم وجوْرَهم عن قصْد السَّبيل ونأيَهم عن الحجَّة والدَّليل، فيكون مرادُه حينئذ حفظَ جاهه ومنزلته لا تعظيمَ ربِّه وإعلاءَ كلمته والذَّبَّ عن دينه.

قال ابنُ تيمية في «منهاج السُّنَّة» (5/254 - 255): «فإنَّ الإنسانَ عليه أوَّلاً أن يكونَ أمرُه لله، وقصدُه طاعةَ الله فيما أمَرَهُ به... فإن فعل ذلك لطلَب الرِّياسة لنفسه ولطائفته، وتنقيص غيره كان ذلك حميَّةً لا يقبلُه الله، وكذلك إذا فعل ذلك لطلَب السُّمعة والرِّياء كان عملُه حابطًا... وهكذا يصيبُ أصحابُ المقالات المختلفة... لا يقصدون أن تكونَ كلمةُ الله هي العليا، وأن يكونَ الدِّينُ كلُّه لله، بل يغضبون على مَنْ خالفهم، وإن كانَ مُجتهدًا معذورًا لا يغضَبُ الله عليه، ويرْضَوْنَ عمَّن يوافقُهم، وإنْ كان جاهلاً سيِّئَ القصد، ليس له علْمٌ ولا حُسنُ قصد، فيفضي هذا إلى أن يحمدوا من لم يحمِدْه الله ورسولُه ويذمُّوا من لم يذمَّه الله ورسولُه وتصيرُ موالاتُهم ومعاداتُهم على أهواءِ أنفُسِهم لا على دين الله ورسوله».

إنَّ المُخلصَ الصَّادقَ يتفانى في إرضاء ربِّه ويفرح بظهور الحقِّ والسُّنَّة ولو كان على لسان غيره، قال الشَّافعي رحمه الله: «ما ناظرني أحد فباليْتُ أظهَرتِ الحُجَّةُ على لسانه أو على لساني»[2]، وفي «تهذيب الكمال» (9/427) أنَّ زهيرَ ابنَ نُعَيْم البابي رحمه الله قال: «وددتُ أنَّ جسدي قُرِضَ بالمقاريض وأنَّ هذا الخلْقَ أطاعوا الله»، وكان عمرُ بن عبد العزيز رحمه الله يَقُول - كما في «سيرته» لابن عبد الحكم (ص130): «يَا لَيْتَنِي قد عملتُ فيكُم بكِتَاب الله وعملتُم به، فَكُلَّما عَمِلْتُ فيكُم بِسنَّة وَقع منِّي عُضْوٌ، حَتَّى يكونَ آخرُ شَيْءٍ منْهَا خُرُوجَ نَفسي».

وهذا يدُلُّ على إخلاصهم وصدقهم وتعظيمهم لربِّهم وشرعه، وترفُّعهم عن تقديس أنفسهم، وعدمِ مبالاتهم بثناء النَّاس عليهم.

(2) «الفرق بين النَّصيحة والتَّعيير» (ص9).

وقد كان ـ ولا يزال ـ العلماءُ الرَّبَّانيُّون والمُصلِحون الصَّادقون من أهل السُّنَّة والجماعة على هذا السَّنَن الأَقْوَم والهدْي الأكرم، يعملون ويكتبون ويتكلَّمون ابتغاءَ وجه اللَّه ونصرةً لدينه ونصحًا لعباده، لا يُريدُونَ عَرَضًا مِن أعراض الدُّنيا الفانية، فجعل الله لهم القَبولَ في الأرض والودَّ في قلوب عباده المؤمنين، ورُفِعَ قدْرُهم ونُشِرَ علمُهم وأُخرِجَتْ كتبُهم، مع كراهيَتِهم للتَّصنيف وعزوفهم عن التَّأليف.

قيل لأبي بكر بن عيَّاش: إنَّ بالمسجد قومًا يجلسون ويُجْلَسُ إليهم، فقال: «من جلسَ للنَّاسِ جلس النَّاسُ إليه، ولكنَّ أهلَ السُّنَّة يموتون ويحيى ذكْرُهم، وأهلَ البدعةِ يموتون ويموتُ ذكرُهم»[3].

وقال مُطرِّف بن عبد الله: «قال لي مالك: ما يقول النَّاسُ في مُوَطَّئي؟ قلتُ: النَّاسُ رجلان؛ مُحِبٌّ مُطْرٍ، وحاسدٌ مُفترٍ، فقال: إنْ مَدَّ بك العُمرُ فسترى ما يرادُ به الله، قال: فكأنَّما أُلقيَتْ تلك ـ أي المُوطَّآت ـ في الآبار، ما سُمِعَ منها شيءٌ بعد ذلك»[4].

فلا يبقى ولا يدوم إلاَّ ما كان لله الحيِّ القَيُّوم، والإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ وطَّأَ وغيرُه وطَّأَ، والله جعل لمُوَطَّئِه من القَبول والبقاء والظُّهور والهيبة ما لم يَجعَلْهُ لغيره، وهذا لصدق نيَّته وطيب سَريرَته، والفضلُ بيد الله يُؤتيه من يشاء، قال الذَّهبي في «السِّيَر» (18/203): «وإنَّ للموطَّأ لوقْعًا في النُّفوس، ومهابَةً في القُلوب لاَ يوازنُها شيءٌ».

وروى أبو نُعَيْم في «الحلية» (6/330) عن ابنِ المُبَارَك رَحِمَهُ اللهُ أنَّه قال: «ما رأيتُ رجلاً ارتفعَ مثلَ مالكِ بن أنس، ليس له كثيرُ صلاة ولا صيام، إلاَّ أن تكونَ له سريرَةٌ»، وهذه السَّريرَةُ هي أنَّه ما تعلَّم ولا علَّم ولا سطَّر كلمةً إلاَّ لله، وطلبًا لمرضاته ونصرةً لدينه وسنَّة نبيِّه ﷺ.

وروى كذلك (9/118ـ119) عن الإمام الشَّافعي رَحِمَهُ اللهُ أنَّه قال: «وددتُ أنَّ الخلقَ يتعلَّمون هذا العلمَ ولا يُنسَبُ إليَّ منه شيءٌ»، وقال: «وددتُ أنَّ كلَّ علم أعلَمُه يعلمُه النَّاسُ، أُؤْجَر عليه ولا يَحمدوني»، هذا هو عينُ الإخلاص والصِّدق وابتغاء مرضاة الله تعالى.

وكان الإمامُ أحمد رَحِمَهُ اللهُ شديدَ الكراهة لتصنيف الكتب، وكان يحبُّ تجريدَ الحديث وَيَكْرَهُ أَنْ يُكْتَبَ كلامُه، ويشتدُّ عليه جدًّا، قال ابنُ القيِّم في «إعلام المُوقِّعين» (2/49): «فعلم الله حسنَ نيَّته وقصده، فكُتِبَ من كلامه وفتواه أكثرُ من ثلاثينَ سِفْرًا».

ولمَّا حُبسَ ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللهُ في القلعة كان يكتُبُ لأصحابه وتلامذته العلم، وقبلَ وفاته بأشهر ورد مرسومُ السُّلطان بإخراج كلِّ ما عنده من كتب وورق وأقلام، فصار يكتب بالفَحْم، قال تلميذُه ابنُ عبدِ الهادي رَحِمَهُ اللهُ في «العقود الدُّرِّيَّة» (ص379 ـ 380): «وكان بعد ذلك إذا كتب ورقةً إلى بعض أصحابه يكتُبها بفحم، وقد رأيتُ أوراقًا عدَّة بعثها إلى أصحابه، وبعضُها مكتوبٌ بفَحْم».

فتأمَّلْ في التَّضييق الَّذي سُلِّطَ على شيخ الإسلام، إلى درجة أنَّه مُنِع من الكتابة، لكنَّ الله أبى إلاَّ أن يُنشرَ علمُه وتُطبعَ كتبُه وتَخرجَ إلى النُّور، لما علم من صدْقِه وسلامةِ قصْده وبلائه الحسن لإعلاء كلمته، وزهدِه في الرِّياسة والجاه والشُّهرة.

والأمثلةُ كثيرةٌ يطول ذكرُها، والمقصودُ هنا الإشارةُ والإثارةُ لتنبيهِ الغافلين وإرشادِ السَّالكين.

فشتَّان بين مَن يبتغي بعلمِه وعملِه ودعوته إرضاءَ ربِّه وإظهارَ دينه ونفعَ عباده وردَّ كيدِ أعدائه، وبين مَن يريد تعظيمَ نفسه وحفظَ جاهه والتَّرؤُّسَ على غيره وإرضاءَ عبدٍ ضعيف مثله.

قال ابنُ القيِّم في «إعلام المُوقِّعين» (6/106): «فكم بين مُريدٍ بالفتوى وجهَ الله ورضاه والقربَ منه وما عنده، ومُريدٍ بها وجهَ المخلوق ورجاءَ منفعته وما يناله منه تخويفًا أو طمعًا، فيُفتي الرَّجلان بالفتوى الواحدة وبينهما في الفضل والثَّواب أعظمُ ممَّا بين المشرق والمغرب، هذا يُفتي لتكونَ كلمةُ الله هي العليا، ودينُه هو الظَّاهرَ ورسولُه هو المطاعَ، وهذا يُفتي ليكونَ قولُه هو المسموعَ وهو المشارَ إليه، وجاهُه هو القائمَ، سواءً وافق الكتابَ والسُّنَّةَ أو خالفهما، فاللهُ المستعان».

وصلَّى اللهُ وسلَّم وبارك على نبيِّه محمَّدٍ وعلى آله وصحبِه وإخوانِه أجمعين.



(3) انظر «مجموع الفتاوى» (16/528).
(4) «ترتيب المدارك» (2/76).



أ.د.محمد علي فركوس
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر



في حكم وضع أجهزة التَّصوير في المسجد

السُّؤال:

فِي أحَدِ المساجد يريدُ قَيِّمُه أنْ يُرَكِّبَ آلةَ تصويرٍ (كاميرا) لنقلِ صورةِ صلاةِ الإمام عبر شاشة عَرْضٍ مُركَّبة لنقلِ صورة الإمام فِي مصلَّى النِّساء المفصولِ عن مصلَّى الرِّجال بجدارٍ، أي: المصلَّى حجرةٌ مفصولةٌ عن حجرة الرِّجال؛ وذلك حتَّى يتسنَّى للنِّساء مُشاهَدةُ صورةِ الإمام والاقتداءُ به؛ فيحصل لهم سماعُ صوته عبر مكبِّرات الصَّوت وتُرى صورتُه عبر هذه الشَّاشة، فما هو الحكم؟ وجزاكم الله خيرًا.

الجواب:

فإنَّه وإن كان وضعُ الآلات الحديثة من الكاميرات والأجهزة المَرْئيَّة قَصْدَ رؤية الإمام عبر الشَّاشة حالَ أدائه لخُطَبه ودروسه الأسبوعيَّة، والاقتداءِ به فِي الصَّلاة أَدْعى للانتباه للخُطَب والدُّروس، وأقوى للإنصات والعناية والمُتابَعة، إلاَّ أنَّ هذه المصلحة تُعارِضُها مَفاسدُ يأتي ـ فِي طليعتها ـ حكمُ التَّصوير وشدَّةُ الوعيد الوارد فِي الأحاديث الصَّحيحة؛ منها قولُه ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ الَّذِينَ يُصَوِّرُونَ هَذِهِ الصُّوَرَ»[1]، وقولُه ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللهِ»[2]، وقولُه ﷺ: «إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يَوْمَ القِيَامَةِ يُعَذَّبُونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ» وقال: «إِنَّ البَيْتَ الَّذِي فِيهِ الصُّوَرُ لاَ تَدْخُلُهُ المَلاَئِكَةُ»[3]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا حَبَّةً وَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً»[4]، وعن سعيد بن أبي الحسن قال: «كنتُ عند ابن عبَّاس رضي الله عنهما إذ أتاه رجلٌ فقال: «يا أبا عبَّاسٍ! إنِّي إنسانٌ إنَّما معيشتي من صنعة يدي، وإنِّي أصنعُ هذه التَّصاويرَ»، فقال ابنُ

(1) أخرجه البخاري (6109) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(2) أخرجه البخاري (5954)، ومسلم (2107)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(3) أخرجه البخاري (2105)، ومسلم (2107)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(4) أخرجه البخاري (5953)، ومسلم (2111)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عبَّاس: «لا أحدِّثكَ إلاَّ ما سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: سمعتُه يقولُ: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فَإِنَّ اللهَ مُعَذِّبُهُ حَتَّى يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ فِيهَا أَبَدًا»، فربا الرَّجلُ رَبْوَةً شديدةً واصفرَّ وجهُه، فقال: «ويحَكَ، إن أبَيْتَ إلاَّ أن تصنَعَ فعليك بهذا الشَّجر، كلِّ شيءٍ ليسَ فيه رُوحٌ»، وفي لفظ لمسلم: عن سعيدِ بن أبي الحسنِ قال: «جاء رجلٌ إلى ابن عبَّاس فقال: «إنِّي رجلٌ أصوِّرُ هذه الصُّورَ، فأَفْتِني فيها»، فقال له: «ادْنُ منِّي»، فدنا منه، ثمَّ قال: «ادْنُ منِّي»، فدنا حتَّى وضع يدَه على رأسه، قال: «أُنَبِّئُكَ بما سمعتُ من رسولِ الله ﷺ، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ، يَجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسًا فَتُعَذِّبُهُ فِي جَهَنَّمَ»»، وقال: «إِنْ كُنْتَ لا بُدَّ فَاعِلاً فَاصْنَعِ الشَّجَرَ وَمَا لا نَفْسَ لَهُ»[5]، وغيرُها من الأحاديث.

فهذه الأحاديثُ تدلُّ بعمومها أنَّ التَّصويرَ لذواتِ الأرواح محرَّمٌ[6] وهو من الكبائر للوعيد الوارد، ولا يُباح إلاَّ للضَّرورة أو لحاجة آكدة.

ولا يخفى أنَّه لا ضرورةَ في هذه المسألة ولا حاجةَ؛ إذ لا يُشْتَرَطُ للمأموم رؤيةُ الإمام في صلاته ولا مُشاهَدتُه في خُطَبِه ودروسه، ولا يُعْلَمُ في ذلك خلافٌ.

لذلك كان حَرِيًّا ببيوت الله أَنْ تُطهَّرَ من كُلِّ ما نهى الشَّرعُ عنه، ويدخل في ذلك عمومُ التَّصوير، وضِمْنَ هذا المعنى قال الشِّنقيطي رحمه الله في مَعْرِض تفسير قوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝٢٦﴾ [سورة الحج] ما نصُّه: «يُؤْخَذُ من هذه الآيةِ الكريمة: أنَّه لا يجوز أَنْ يُترك عند بيت الله الحرام قَذَرٌ من الأقذار، ولا نَجَسٌ من الأنجاس المعنويَّة ولا الحسِّيَّة؛ فلا يُتْرَك فيه أحَدٌ يرتكب ما لا يُرْضِي الله، ولا أحَدٌ يلوِّثه بقَذَرٍ من النَّجاسات، ولا شكَّ أنَّ دخولَ المصوِّرين في المسجد الحرام حول بيت الله الحرام بآلات التَّصوير - يصوِّرون بها الطَّائفين والقائمين والرُّكَّعَ السُّجودَ - أنَّ ذلك مُنافٍ لِما أَمَرَ الله به من تطهير بيته الحرام للطَّائفين والقائمين والرُّكَّع السُّجود؛ فانتهاكُ حُرْمةِ بيت الله بارتكاب حُرْمة التَّصوير عنده لا يجوز؛ لأنَّ تصوير الإنسان دلَّتْ الأحاديثُ الصَّحيحة على أنه حرامٌ، وظاهرُها العمومُ في كُلِّ أنواع التَّصوير، ولا شكَّ أنَّ ارتكابَ أيِّ شيءٍ حرَّمه رسولُ الله ﷺ أنَّه من الأقذار والأنجاس المعنويَّة الَّتي يَلْزَمُ تطهيرُ بيت الله منها، وكذلك ما يقع في المسجد من الكلام المُخلِّ بالدِّين والتَّوحيد لا يجوز إقرارُ شيءٍ منه ولا تركُه»[7].

هذا؛ وإن كان حكمُ التَّصوير بالكاميرا مَحَلَّ خلافٍ بين أهل العلم - وبغَضِّ النَّظر عن الرَّاجح في المسألة - إلاَّ أنَّه - جريًا على القواعد العامَّة - جديرٌ بالمسلم الخروجُ من الخلاف بالأخذ بالأثقل حكمًا؛ وذلك صيانةً لبيوت الله تعالى عن أيِّ فعل مُشْتَبَه فيه لم تَثْبُتْ مشروعيَّتُه ولم تَتقرَّرْ حِلِّيَّتُه عملاً بالحيطة المؤكَّدة بقوله ﷺ: «دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يَرِيبُكَ»[8]، وقوله ﷺ: «فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِه وَعِرْضِه، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ»[9]، فضلاً عن أنَّ من آفات أجهزة التَّصوير أنَّها تُلْهي المُصَلِّين عن صلاتهم بالنَّظر والحركة، كما تُدْخِلُ في نفوس الأحداث المتصدِّرين للخطابة والدُّروسِ العُجبَ والرِّياءَ والتَّسميع وحُبَّ الظُّهورِ وتعميمَ التَّنافسِ بينهم فيها، وغيرَ ذلك من المَثالب الَّتي يجب تنزيهُ المساجد منها.

وأخيرًا، فبالرُّغم من أنَّ أجهزةَ التَّصوير ليست مشروطةً ولا واجبةً في المسجد إلاَّ أنَّ المصلحةَ المَرْجُوَّةَ منها مُعارَضةٌ بجملةٍ من المَفاسدِ سَبَقَ ذِكْرُ بعضِها؛ فكان الواجبُ صيانةَ المساجد منها والعملَ بما تَقرَّرَ أصوليًّا من أنَّ «دَرْءَ المَفَاسِدِ مُقَدَّمٌ عَلَى جَلْبِ المَصَالِحِ».

❦❦❦

(5) أخرجه البخاري (2225)، ومسلم (2110)، من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما.

(6) ويُرَخَّص من الصُّوَر ذوات الأرواح - أيضًا - ما كان مُمْتَهَنًا؛ فعن عائشة رضي الله عنها: «أنَّها كانت اتَّخَذَتْ على سهوة لها سترًا فيه تماثيلُ، فهتكَهُ النَّبيُّ ﷺ، فاتَّخَذَتْ منه نُمْرُقَتَيْنِ، فكانتا في البيت يَجْلِسُ عليهما»، أخرجه البخاري (2479)، ومسلم (2107)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(7) «أضواء البيان» للشِّنقيطي (5/64).

(8) أخرجه التِّرمذي (2518)، والنسائي (5711)، من حديث الحسن بن عليٍّ رضي الله عنهما، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (3378).

(9) أخرجه البخاري (52)، ومسلم (1599)، من حديث النُّعمان ابن بشير رضي الله عنهما.

في حكم
إجارة الثِّياب والحُلِيِّ للمناسبات



■ **السُّؤال:**

ما حكمُ استئجارِ الثِّياب للمُناسَبات، وكذا استئجارِ المرأةِ الذَّهبَ للتحلِّي به في الأعراس؟

وهل هذا داخلٌ في قوله ﷺ: «المُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ».

وجزاكم اللهُ خيرًا.

■ **الجواب:**

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على مَنْ أرسله الله رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فإجارةُ الثِّيابِ المُباحة جائزةٌ، ويجوز ـ أيضًا ـ إجارةُ الحُلِيِّ مِنَ الذَّهب والفضَّة للنِّساء بأحَدِ النَّقدَيْنِ أو غيرهما إذا كانَت المدَّةُ معلومةً والأجرُ معلومًا، وهو مَذْهَبُ الشَّافعيِّ وأصحابِ الرَّأي وروايةٌ عن أحمد، والمشهورُ عن مالك، اختارَهُ ابنُ القاسم[10]؛ عملاً بالأصل المقرَّرِ في الأشياءِ والأعيانِ المُنتفَعِ بها بعد ورودِ الشَّرع وهو الإباحةُ والجواز، ولأنَّ الحُليَّ والثِّيابَ زينةٌ معدودةٌ مِنْ جملةِ المَقاصدِ الأصليَّة الَّتي أباحَها اللهُ للنِّساء؛ فهي أعيانٌ يُنْتفَعُ بها منفعةً مُباحةً مقصودةً مع بقاء أعيانها؛ فأَشْبَهَتْ سائرَ الإجاراتِ المُباحة.

قال ابنُ قدامة رَحِمَهُ اللهُ: «تجوز إجارةُ كُلِّ عَيْنٍ يمكن أَنْ يُنْتفَعَ بها مَنْفَعةً مُباحةً مع بقائها بحكم الأصل، كالأرض والدَّار، والعبدِ والبهيمة، والثِّياب والفساطيط[11] والحبال والخيام والمَحامِل، والسَّرْجِ واللِّجام، والسَّيف والرُّمح، وأشباهِ ذلك، وقد ذَكَرْنا كثيرًا ممَّا تجوز إجارتُه في مَواضعه، وتجوز إجارةُ الحُليِّ، نصَّ عليه أحمدُ في روايةِ ابنه عبدِ الله، وبهذا قال الثَّوريُّ والشَّافعيُّ وإسحاقُ وأبو ثور وأصحابُ الرَّأي»[12].

هذا، وتَردُ شبهةُ المُخالفين لحكم جوازِ إجارة الحُليِّ مِنَ الذَّهب والفضَّة والثِّياب مِنْ زاويتين:

الأولى: أنَّ إجارة الحُليِّ بأجرةِ جِنْسه كالذَّهب مع الذَّهب أو الفضَّة مع الفضَّة يُفْضي إلى الرِّبَا، إمَّا بالتَّأجيل وإمَّا بالنَّقص الحاصلِ بالاحتكاك حالَ الاستعمال؛ «فيذهبُ منها أجزاءٌ وإنْ كانَتْ يسيرةً؛ فيحصلُ الأجرُ في مُقابَلتها ومُقابَلة الانتفاع بها؛ فيُفْضي إلى بيعِ ذهبٍ بذهبٍ وشيءٍ آخَرَ»[13].

(10) انظر: «المدوَّنة» لابن القاسم (3/328)، «مَناهِج التَّحصيل» للرجراجي (7/290).

(11) جمعُ فسطاط، وهو ضربٌ مِنَ الأبنية، وهو ـ أيضًا ـ الخيمةُ العظيمة، انظر: «العين» للفراهيدي (7/217)، «تهذيب اللُّغة» للأزهري (12/238)، «التَّعريفات الفقهيَّة» للبركتي (164).

(12) «المغني» لابن قدامة (5/545).

(13) المصدر السَّابق (5/546).

قال النَّوويُّ رحمه الله: «ذَكَرَ الصَّيمَريُّ ثمَّ الماورديُّ ومُتابعوهما هنا أنَّ الأفضل إذا أَكْرَى حُليَّ ذهب أو فضَّة أَنْ لا يُكْرِيَهُ بجنسه، بل يُكْري الذَّهبَ بالفضَّة والفضَّةَ بالذَّهب، فلو أَكْرَى الذَّهبَ بالذَّهب أو الفضَّةَ بالفضَّة فوجهان: أَحَدُهما: بطلانُه حَذَرًا مِنَ الرِّبَا، والصَّحيحُ: الجوازُ كسائر الإجارات، قال الماورديُّ: وقولُ الأوَّل باطلٌ؛ لأنَّ عَقْدَ الإجارة لا يدخله الرِّبَا؛ ولهذا يجوز إجارةُ حُليِّ الذَّهب بدَراهمَ مُؤَجَّلة بإجماع المسلمين، ولو كان الرِّبا هنا مَدْخَلٌ لم يَجُزْ هذا»[14].

وقال ابنُ قدامة رحمه الله: «وما ذَكَروهُ مِنْ نَقْصها بالاحتكاك لا يصحُّ؛ لأنَّ ذلك يسيرٌ لا يُقابَلُ بعوَض، ولا يكاد يظهر في وزن، ولو ظَهَرَ فالأجرُ في مُقابَلة الانتفاع لا في مُقابَلة الأجزاء؛ لأنَّ الأجر في الإجارة إنَّما هو عوَضُ المنفعة كما في سائر المواضع، ولو كان في مُقابَلة الجزء الذَّاهب لَما جازَ إجارةُ أَحَد النقدَيْن بالآخَر؛ لإفضائه إلى الفَرْق في مُعاوَضة أَحَدهما بالآخَر قبل القبض»[15].

الثَّانية: كَرِهَ مالكٌ رحمه الله ـ في الرِّواية الثَّانية ـ أَخْذَ الأجرة على إجارة الحُليِّ والثِّياب؛ لأنَّهما بمَثابة الدَّلو والفأس وسائرِ الماعون الَّذي يَستخدمُهُ النَّاسُ ويمتهنونه؛ لذلك رأى مالكٌ رحمه الله أنَّه ليس مِنْ مَكارم الأخلاق أَنْ يمنع مَنْ يحتاج إليهما؛ حَذرًا مِنَ الوقوع في وعيد قوله تعالى: ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ۝٧﴾ [سُورَةُ المَاعُونِ]، ولقوله ﷺ: «لَأَنْ يَمْنَحَ الرَّجُلُ أَخَاهُ أَرْضَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْخُذَ عَلَيْهَا خَرْجًا مَعْلُومًا»[16].

لذلك قال مالكٌ رحمه الله: «لَسْتُ أَراهُ بالحرام البيِّن، وليس كِراءُ الحُليِّ مِنْ أخلاق النَّاس، وأنا لا أرى به بأسًا»[17].

ومِنْ مُنْطَلَق هذا النَّظر فإنَّ الظَّاهر أنَّ مالكًا رحمه الله لا يرى حُرْمةَ إجارة الثِّياب والحُليِّ، وإنَّما يَتحقَّقُ المعروفُ في إعارتهما لا في إجارتهما؛ لأنَّهم كانوا يَرَوْنَ زكاتَه أَنْ يُعارَ؛ ولذلك كَرِهَ أَنْ يُكْتَرَى[18].

هذا، ولا تَعارُضَ بين حُكم جواز إجارة الحُليِّ والثِّياب مع حديث: «المُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ»[19]؛ لأنَّ الحديث يدلُّ على تحريم الكذب بادِّعاء ما ليس له مِنَ الفضائل، سواءٌ بالفعل أو بالقول؛ ذلك لأنَّ المُظْهِرَ للشِّبَع وهو جائعٌ كالمُزوِّر الكاذب المُتلبِّس بالباطل؛ فهو يكذب على نَفْسه بأنَّه أُعْطِيَ ولم يُعْطَ، ويكذبُ على غيره بأنَّه أُعْطِيَ ما لم يُعْطَ؛ فثُنِّيَ الثَّوبانِ في تمثيله[20].

ويدلُّ على حَمْله على التَّحذير مِنَ الكذب وتحريمه: سببُ ورود حديث عائشة رضي الله عنها: أَنَّ امْرَأَةً قَالَتْ: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَقُولُ: إِنَّ زَوْجِي أَعْطَانِي مَا لَمْ يُعْطِنِي؟»، فذَكَرَت الحديثَ، وفي حديث أسماءَ رضي الله عنها: جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَتْ: «إِنَّ لِي ضَرَّةً، فَهَلْ عَلَيَّ جُنَاحٌ أَنْ أَتَشَبَّعَ مِنْ مَالِ زَوْجِي بِمَا لَمْ يُعْطِنِي؟»، فذَكَرَت الحديثَ، وهو كَذِبٌ.

ولا خلافَ ـ مِنْ جهة أخرى ـ في جوازِ إعارة الحُليِّ والثِّياب وغيرهما مِنْ أنواع الزِّينة[21]؛ فلو كان الحديثُ يُعارِضُه لامْتَنَعَت الإعارةُ أيضًا، و«اللَّازِمُ بَاطِلٌ وَالمَلْزُومُ مِثْلُهُ»؛ لذلك كانَتْ إجارةُ الحُليِّ والثِّياب جائزةً مِنْ غير ادِّعاءِ مِلْكيَّتها؛ حذرًا مِنَ الكذب والتَّلبيس.

هذا، وإِنْ تَقَرَّرَ ـ أخيرًا ـ جوازُ استئجارِ الثِّياب والحُليِّ للمُناسَبات والأفراح والأعراس وغيرها، إلَّا أنَّ الجديرَ التَّنبيهُ إلى وجوبِ مُراعاة الضَّوابطِ الشَّرعيَّة للزِّينة بالثِّياب والحُليِّ وغيرها، واستعمالُها في الأعراس والمُناسَبات الخالية مِنَ المُخالَفات الشَّرعيَّة.

والعلم عند الله تعالى، وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، وسلَّم تسليمًا.

---

(14) «المجموع» للنَّووي (6/46).

(15) «المغني» لابن قدامة (5/546).

(16) أخرجه مسلمٌ في «البيوع» (1550) مِنْ حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما.

(17) انظر: «المدوَّنة» لابن القاسم (3/428)، «مَناهج التَّحصيل» للرجراجي (7/290).

(18) انظر: «منَح الجليل» لعلِّيش (7/485).

(19) أخرجه البخاريُّ في «النِّكاح» بابُ المتشبِّع بما لم يَنَلْ، وما يُنْهى مِن افتخار الضَّرَّة (5219)، ومسلمٌ في «اللِّباس والزِّينة» (2130)، مِنْ حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما. وأخرجه مسلمٌ مِنْ حديث عائشة برقم: (2129).

(20) انظر: «الكواكب الدَّراري» للكرماني (19/159)، «التَّنوير شرح الجامع الصَّغير» للصَّنعاني (10/463)، «مَطالع الأنوار» لابن قرقول (2/76).

(21) قال ابن حزم ـ رحمه الله ـ في «مراتب الإجماع» (94): «واتَّفَقوا على أنَّ عاريةَ المتاع للانتفاع به، لا لأكله ولا لإفساده ولا للتملُّك، لكنْ للِّباس والتَّجمُّل والتوطِّئ ونحو ذلك جائزٌ».



ما أشبه اللَّيلة بالبارحة...

أذيَّة الطُّرقيِّين لعلماء الجمعيَّة المصلحين



سليم مجوبي
مرحلة الدكتوراه بالجامعة الإسلامية ـ المدينة النبوية

من سنن الله الكونيَّة القدريَّة، أنَّه لم يكن باطلٌ إلا والحقُّ يدمغه، ولم يكن حقٌّ إلا والباطل يدفعه، تكون لأحدهما حينًا جولة، وللآخر أحيانًا صولة ودولة، غير أنَّ العاقبةَ للحقِّ وسلطانه، وأنصاره وأعوانه: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [سورة الإسراء].

وعادة المبطلين أنَّهم يدافعون عن باطلهم بكلِّ ما أوتوا من قوَّة، بتزيينه وتحبيره، والطَّعن فيمن ردَّه وتصغيره، سواء بالوقيعة في أهل الحقِّ والدِّين أو الاعتداء عليهم بالعصا والسكِّين.

قال الميلي: «وذلك حظُّ الدُّعاة إلى السنَّة من مبتدعي هذه الأمَّة؛ قال أبو إسحاق الشَّاطبي في «الاعتصام»[1]: «إنَّ شأنَ البدعة في الواقع، المداومةُ والحرصُ على أن لا تُزال من موضعها، وأن تقومَ على تاركها القيامة، وتنطلقَ عليه ألسنةُ المَلامة، ويُرمى بالتَّسفيه والتَّجهيل، ويُنبذَ بالتَّبديع والتَّضليل، ضدُّ ما كان عليه سلف هذه الأمَّة والمقتدى بهم من الأئمَّة. والدَّليل على ذلك الاعتبارُ والنَّقل؛ فإنَّ أهلَ البدع كان من شأنهم القيامُ بالنَّكير على أهل السُّنة، إن كان لهم عُصبة، أو لصقوا بسلطان تجري أحكامُه في النَّاس وتنفُذ أوامرُه في الأقطار.

ومَن طالع سِيَر المتقدِّمين وجد من ذلك مالا يخفى، وأمَّا النَّقل؛ فما ذكره السَّلف من أنَّ البدعةَ إذا أُحدثت لا تزيد إلا مُضيًّا»[2].

ولقد كان لعلماء جمعيَّة علماء المسلمين الجزائريِّين نصيبٌ من هؤلاء، وحظٌّ من نوعَي الاعتداء: الاعتداء على أعراضهم بالثَّلب، والاعتداء على أشخاصهم بالضَّرب.

أوَّلا: الاتِّهامات الباطلة وموقف الجمعيَّة منها

قال ابن باديس: «ضجَّ المتعيِّشون من الزَّوايا والطَّرائق من هذه الدَّعوة، وكبُر عليهم وقعُها، وخافوا على رياستهم ـ المبنيَّة على الجهل والخرافة ـ أن يتصدَّع من العلم الصَّحيح ركنُها، وعلى تلك الأموال ـ الَّتي أفقروا باغتصابها الأمَّة وزاحموا أو عطَّلوا مَجابيَ الحكومة ـ أن ينضَب مَعينُها، فأخذوا يرمون الدَّعوة الإصلاحيَّة بالعظائم عند الأمَّة وحكومتها، من التقوُّل عليها والتَّشويه لسُمعتها، والتَّحريف لكلماتها، والتَّضليل عن غايتها، ويبذلون كلَّ ما لديهم من قوَّة، تارةً في أفانين الإفك، وأخرى في وسائل الفَتك، للقضاء على دعاتها...»[3].

وقال العقبيّ: «...قيَّض الله عُصبة المصلحين العاملين لخير هذه الأمَّة وصلاحها، فقام منهم مَن لا تأخذه في الله لومةُ لائم، يبيِّنون للنَّاس دينَهم الحقَّ بالحُجَّة والبرهان، ويفهِّمونهم تعاليم نبيِّهم الكريم ﷺ في أسهل عبارة وأوضح بيان، داعين إلى سبيل ربِّهم بالحكمة والموعظة الحسنة ... فكبُر أمرُ هؤلاء المصلحين عند أولئك المبطلين من الطرقيِّين ... ولم يجدوا لهم في مقاومة المصلحين من حُجَّة ولا برهان إذا هم حاجُّوهم وجادلوهم، فما وسعهم إلا الالتجاءُ إلى سلاح الكذب والبهتان وقلب الحقائق، تضليلا للعامَّة وتغليطًا للرَّأي العام، ورمي المؤمنين الموحِّدين والعلماء العاملين بكلِّ إفك وباطل، فقالوا عنَّا: إنَّنا نُنكر

(1) «الاعتصام» (2/390ـ391).

(2) «الشِّرك ومظاهره» (ص 180).

(3) جريدة «الشِّهاب» (4/241).

الوسيلة إلى الله بحبِّ الأولياء والأنبياء، وإنَّنا لا نتقرَّب إليه بالطَّاعات وصالح الأعمال، وقالوا: إنَّنا نحطُّ من كرامة نبيِّنا محمَّد ﷺ وننتقصُ من قدره ونُنكر شفاعتَه يوم القيامة، وإنَّنا نسمِّيه موزِّع بريد (فَكْتور)، وإنَّهم سمعوا ذلك منَّا المرار العديدة؛ ولعنة الله الكاذبين...»[4].

■ **فمِن تعدِّيهم على علماء الجمعية:**

□ **رميُهم بإنكار الولاية وبغض الأولياء**، وذلك لِما بيَّنه علماء الجمعيَّة من معنى الولاية الحقيقيَّة، وزيَّفوا ما يدَّعونه من نسبة خصائص الألوهيَّة والربوبيَّة لأوليائهم المزعومين.

قال العقبي: «يقولون: إنِّي عدوٌّ لأولياء الله الصَّالحين، وذلك لِما بيَّنته من عقيدتي في قصيدتي «إلى الله الدِّين الخالص»[5]، وأقول لهم:... وأمَّا أولياء الله الصَّالحون، فإنِّي أحبُّهم أكثر من كلِّ أحد، وأسأل الله أن يحشُرني في زمرتهم ويُميتَني على محبَّتهم. وحسبي دليلا على ذلك أنِّي أُسلِّم عليهم جميعًا مع نفسي في كلِّ تشهُّد[6] من صلاتَي الفرض والنَّفل...»[7].

قال الميلي[8] ـ وهو يبيِّن حقيقة محبَّة الأولياء ـ: «إن كانت محبَّة الأولياء محبَّة تشرُّع؛ كان من نتائجها الإصغاءُ إلى ما يرشد إليه العلماءُ بالدِّين، والإقلاعُ عمَّا يحذِّرون منه، مستندين في ذلك إلى الأدلَّة الشرعيَّة الَّتي هي الكتاب والسُّنة وإجماعُ المجتهدين... وإن كانت محبَّةً يُكتفى فيها بتقديس أشخاصهم والذبِّ دونهم بمذبَّة الحميَّة؛ فنحن نهبُها لكم ونبرأ إلى الله منها، بل نراها من أعظم إذاياتهم»[9].

ومن تعدِّيهم على علماء الجمعية:

□ **زعمُهم أنَّ المصلحين يكفِّرون المسلمين**، وذلك لَمَّا بيَّنوا لهم حقيقةَ التَّوحيد ونهَوهم عن الشِّرك، ووضَّحوا لهم ما هم فيه واقعون من تعظيم أصحاب القبور ودعائها من دون الله، ممَّا يتنافى مع الإسلام الصَّحيح.

قال الميلي: «ومن أقوى ما لبَّسوا به على العموم، ومدُّوا به صَخب الخصوم: رميُهم لنا بأنَّا نحكُم على المسلمين بحُكم المشركين...»[10].

ثمَّ ردَّ عليهم بقوله: «نحن لا نكفِّر أحدًا من أهل القِبلة، ونقول في غير تعيين: إنَّه يوجد في المسلمين من يضاهون في عقائدهم المشركين... وغرضُنا من الخوض في حديث الشِّرك تحذيرُ المسلمين منه، لا الحُكم عليهم به تعيينًا»[11].

□ **زعمهم أنَّهم أَتَوا بدين جديد:**

قال الميلي: «إنَّ أهل زماننا قد رضُوا حالتهم وسخِطوا على ناصحيهم مقالَتهم وقالوا: جاؤونا بدين جديد[12]... وإنَّ ما يرشد إليه المصلحون ضلالةٌ ابتدعها ابن تيمية.

لا؛ لم نأتِ بجديد في نظر الدِّين، ولكنَّه جديد في آذان المستمعين، ومَن تقدَّمَنا من العلماء بعضُهم أنكروا مثلنا فطُعِن فيهم وحِيل بينهم وبين العامَّة... وأمَّا ابن تيمية؛ فلم يبتدع ضلالة، وإنَّما أحيا السُّنة ودعا إلى الهدى واجتهد في النُّصح، وليست الدَّعوة إلى التَّوحيد بمذهبٍ خاص، ولكنَّه دينُ الله العام»[13].

□ **زعمهم أنَّ المصلحين فرَّقوا الأمَّة بدعوتهم هذه:**

قال الإبراهيمي: «يقول فريق من النَّاس ممَّن لم يُرزق صوابًا في الرَّأي ولا سدادًا في التَّفكير: إنَّ الجمعيَّة فرَّقت كلمة الأمَّة وجلبت علينا الاضطرابَ والفتنة والتَّشويش...

وليت شعري! متى كانت هذه الأمَّة مجتمعةً حتَّى يقول قائل: إنَّ الجمعيَّة فرَّقتها؟ وأنَّى لها أن تجتمع وإنَّ أمامها في كلِّ طريق ناعقًا ينعق باسم طريق[14]، وداعيًا يدعو إلى التَّفريق، بل كيف تجتمع وللشُّيوخ فيها ما للذِّئاب الضَّارية في قطيع الغنم؟ أم كيف تجتمع والشُّيوخ قد قسَّموها إلى مناطق نفوذ، وأحاط كلُّ شيخ رعيَّته بأسوار منيعة من التَّرغيب والتَّرهيب؟... أم كيف تجتمع وفيهم مَن يرى من واجبات طريقته ومن شروط

(4) جريدة «الشَّريعة» (3/6).
(5) انظر القصيدة كاملة في «الشِّرك ومظاهره» (ص 447).
(6) يعني قوله في التَّشهد: «السَّلام علينا وعلى عباد الله الصَّالحين».
(7) جريدة «الشِّهاب» (1/238ـ239) و(1/317).
(8) وانظر اتِّهامهم للميلي (بيضاوي) بذلك في «الشِّهاب» (1/119)، وانظر كلامًا للزَّاهري في (8/19ـ24).
(9) جريدة «الشِّهاب» (1/148ـ149).
(10) «الشِّرك ومظاهره» (ص51).
(11) المصدر السَّابق (ص 52ـ54). وهذا من أصول أهل السُّنَّة، وهو أنَّ الحُكم على الأفعال والأوصاف والأحوال بأنَّها كفرٌ أو شركٌ أو رِدَّة ـ عند الإطلاق ـ لا يقتضي تنزيل الحكم على المعيَّن الواقع فيها؛ إذ القاعدة عندهم: «ليس كلُّ من وقع في الكفر، وقع الكفرُ عليه» حتَّى تقام عليه الحُجَّة، وتجتمع فيه شروط التَّكفير وتنتفيَ عنه موانعه، ومرد ذلك إلى كبار أهل العلم، كما هو مفصَّل في مواضعه. وقد ذكر الميلي بعض الأدلَّة على ذلك، ثمَّ قال: «وهذه الأدلَّة وما في معناها كما تدلُّ على أنَّ تحذيرَ المسلم من الشِّرك ليس حُكمًا به عليه؛ تدلُّ أيضًا أنَّ مجرَّد النُّطق بالشَّهادتين لا يطرد عن ساحة القلب شبحَ الشِّرك، ولا سيَّما نطقٌ من لُقِّنها تقليدًا عاديًا خاليًا من فهم معناها، وإنَّما اعترف بهما بحُكم الوسط لا باضطرار العلم».
(12) وهذه من الشُّبه الَّتي تلقَّفها خلفهم عن سلفهم، وما زلنا نسمعها حتَّى اليوم.
(13) «الشِّرك ومظاهره» (ص 96ـ97).
(14) يعني من طرق الصُّوفيَّة.

المحافظة عليها أن لا يصلِّيَ خلف طُرُقيٍّ آخر يخالفه في الطَّريقة. وإن اشتركا في لقب الإسلام. لا لشيء سوى ذلك؟

ونحن نقول لهم: إذا كانت الأمَّة قبل اليوم متفرِّقة وكلُّها على باطل فهي اليوم. بحمد الله وبفضل هذه الجمعيَّة. متفرِّقة وبعضُها على الحق، وإنَّ أهونَ الشرَّين ما بعضُه خير»[15].

□ الوشاية بهم لدى الإدارة الاستعماريَّة واستعداؤها عليهم:

فمن ذلك أنَّ أصحاب الطَّريقة العليويَّة[16] رفعوا عريضةً إلى الحاكم العام بمدينة تلمسان، عليها توقيع (75) رجلا منهم، ضدَّ نشاط الجمعيَّة، وخصوصًا الشَّيخ البشير الإبراهيمي[17].

ومن ذلك سعيُ بعض الطرقيِّين لدى دار الشُّرطة بمدينة «خنشلة» لتحريضها على نشاط الشَّيخ العربي التبسِّي بها، وكذبُهم عليه في ذلك[18].

ومن ذلك اتِّهام الطيِّب العقبي باغتيال الشَّيخ محمود كحول[19]، وتعرُّضه بسبب ذلك للسَّجن، ثمَّ ظهرت براءته وأُطلق سراحه[20].

(15) «آثار الإبراهيمي» (139/1).
(16) نسبة إلى أحمد بن مصطفى ابن عليوة، أبو العبَّاس المستغانمي الجزائري. له ترجمة في «صراع بين السُّنَّة والبدعة»، لأحمد حمَّاني (161/1)، و«نثر الجواهر والدُّرر في علماء القرن الرَّابع عشر»، للمرعشلي (209/1).
(17) انظر: «أبحاث في تاريخ الجزائر»، لأبي القاسم سعد الله (61/3).
(18) جريدة «الشِّهاب» (424/4).
(19) من تلاميذ الشَّيخ حمدان الونيسي. شيخ ابن باديس. عمل مدرِّسًا في إحدى المدارس الفرنسيَّة، ومحرِّرا صحفيًّا، ثمَّ تولَّى الإمامة والتَّدريس في «مدرسة الجزائر الشَّرعيَّة» الفرنسيَّة، ثمَّ الإفتاء بالعاصمة. وكان من خصوم جمعيَّة العلماء ومن أعوان الإدارة الفرنسيَّة، انظر: «تاريخ الجزائر الثَّقافي» (384/4).
(20) انظر: «آثار الإبراهيمي» (1/261. 280).

قال الميلي: «ومن النَّاس مَن يرى معيشتَه في السِّعاية بالعلماء المرشدين، وفي مثلهم جاء حديث المستورد بن شدَّاد ﵁، أنَّه ﷺ قال: «مَنْ أكل بمُسْلم أَكْلَة[21]؛ أَطْعَمَهُ اللهُ بهَا أكلة مِنْ نَارِ جَهَنَّم يَوْمَ القِيَامَة، وَمَنْ قَامَ بمُسْلم مَقَامَ سمعة؛ أَقَامَهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مَقَامَ رِيَاءٍ وَسُمْعَة، وَمَن اكْتَسَى بمُسْلم ثَوْبًا؛ كَسَاهُ اللهُ ثَوْبًا مِنْ نَارٍ يَوْمَ القِيَامَةِ» أخرجه الحاكم[22].

قال ابن القيِّم في «إعلام الموقعين»[23]: «ومعنى الحديث أنَّه توصَّل إلى ذلك وتوسَّل إليه بأذى أخيه المسلم، من كذب عليه أو سخريّة أو هَمزة أو لَمزة أو غيبة، والطَّعن عليه والازدراء به، والشَّهادة عليه بالزُّور، والنَّيل من عِرضه عند عدوِّه، ونحو ذلك». ساق ذلك في جملة من الكبائر»[24].

□ رميهم لهم بالوهَّابية[25]، تنفيرًا للنَّاس عن سماع الحقِّ:

قال العقبي: «يقولون لي: إنَّ عقائدَك هذه هي عقائد الوهَّابية، فقلت

(21) الأَكْلة (بالفتح): المرَّة الواحدة حتَّى يشبع، والأُكْلة (بالضَّم): اللُّقمة، والإِكْلة (بالكسر): هيئة الأكل. انظر «لسان العرب»: (101/1).
(22) أخرجه أبو داود (4881)، وأحمد (18011)، والحاكم (127/4)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرِّجاه. ووافقه الذَّهبي، وصحَّحه الألباني في «الصَّحيحة» (934).
(23) «إعلام الموقِّعين» (488/4).
(24) «الشِّرك ومظاهره» (ص 180. 181).
(25) نقل الشَّيخ أبو يعلى الزَّواوي عن الشَّيخ محمَّد رشيد رضا قوله: «إنِّي لا أعلم على وجه الأرض مذهبًا يسمَّى وهَّابيًا... وإنَّما الدَّولة العثمانية لمَّا رأت النَّهضة الَّتي قام بها الدَّاعي إلى السُّنَّة المرحوم الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب ونصره آل السعود في القرن الماضي، خشيت أن يعظُم أمر العرب، فدَعَت علماء السُّوء للطَّعن في الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهَّاب وأنصاره آل السعود لإحباط مساعيهم». «الصراط»: (4/6)، وانظر: (3/3) و(4/5) و(7/7).

لهم: إذن الوهَّابيَّة هم الموحِّدون»[26].

وقال ﵀: «وإذا كانت الوهَّابيَّة هي عبادةُ الله وحدَه بما شرعه لعباده؛ فإنَّها هي مذهبُنا وديننا وملَّتنا السَّمحة الَّتي نَدين الله بها، وعليها نحيا وعليها نموت ونُبعث إن شاء الله من الآمنين. وإن تكن الوهَّابية شيئًا آخر غير هذا؛ فإنَّنا منها بريئون وعنها بعيدون»[27].

نشرت جريدة «الشِّهاب» قول الملك عبد العزيز ﵀: «يسمُّوننا بالوهابيِّين، ويسمُّون مذهبنا بالوهَّابي، باعتبار أنَّه مذهب خاص. وهذا خطأ فاحش، نشأ عن الدِّعايات الكاذبة الَّتي يبثُّها أهل الأغراض. نحن لسنا أصحابَ مذهب جديد وعقيدة جديدة، ولم يأت محمَّد ابن عبد الوهَّاب بالجديد، فعقيدتُنا هي عقيدة السَّلف الصَّالح التي جاءت في كتاب الله وسنَّة رسوله [ﷺ] وما كان عليه السَّلف الصَّالح، ونحن نحترم الأئمَّة الأربعة، ولا فرق عندنا بين مالك والشَّافعي وأحمد وأبي حنيفة، وكلُّهم محترمون في نظرنا. هذه هي العقيدة الَّتي قام شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب يدعو إليها، وهذه هي عقيدتنا، وهي مبنيَّةٌ على توحيد الله عزَّ وجل، خالصةٌ من كلِّ شائبة، منزَّهة عن كلِّ بدعة...»[28].

وقال الإبراهيمي. رادًّا هذه الفرية الطرقيَّة.: «وقد كان آخرُ طرازٍ من هذه الأسلحة المفلولة الَّتي عرضوها في هذه الأيَّام كلمة «وهَّابي»، ولعلَّهم حشدوا لها ما لم يحشدوا لغيرها، وحفَلوا بها ما لم يحفلوا بسواها...

إنَّ العامَّة لا تعرف مِن مدلول كلمة

(26) جريدة «الشِّهاب» (388/3).
(27) جريدة «السُّنَّة» (7/2).
(28) جريدة «الشِّهاب» (306/5).

«وهَّابي» إلا ما يعرِّفها به هؤلاء الكذَّابون، وما يعرف منها هؤلاء إلا الاسم، وأشهر خاصَّـة لهذا الاسم وهي أنَّه يُذيب البدع كما تُذيب النَّار الحديد...

وما يقصدون بهذه الكلمات إلا تنفيرَ النَّاس من دعاة الحقّ، ولا دافعَ لهم إلى الحشـد في هذا إلَّا أنَّهـم موتورون لهذه الوهَّابية الَّتي هدمت أنصـابَهم، ومحت بدعَهم فيما وقع تحت سلطانها من أرض الله، وقد ضجَّ مبتدعةُ الحجاز، فضجَّ هؤلاء لضـجيجهم. والبدعة رحمٌ ماسَّة. فليس ما نسـمعه هنا مِـن ترديد كلمة «وهَّابي» تُقذف في وجه كلِّ داعٍ إلى الحقّ إلا نواحًـا مردَّدًا علـى البدع الَّتي ذهبت صرعى هذه الوهَّابية، وتحرُّقًا على هذه الوهَّابية الَّتي جرفـت البدع، فما أبغضَ الوهَّابيَّة إلى نفوس أصـحابنا، وما أثقلَ هـذا الاسـم علـى أسـماعهم، ولكن ما أخفَّـه على ألسـنتهم حيث يتوسَّـلون به إلى التَّنفير من المصـلحين، وما أقسـى هـذه الوهَّابيّـة الَّتي فَجَعـت المبتدعة في بِدعهـم. وهـي أعـزُّ عزيز لديهـم. ولم ترحم النُّفوس الولهانـة بحبِّها ولم تَرْثِ للعبرات المُراقة مِن أجلها. وإذا لم يفهم أصـحابُنا مِن معنـى الوهَّابيّـة إلا محوَ البـدع؛ فقـد اسـتقام لهم هـذا المنطق الغريـب على هـذا النَّحـو الغريب، وهو أنَّـه ما دامت الوهَّابيّة هي محوُ البدع... وما دام المصـلحون يُنكرون البدع؛ فهم وهَّابيّون، وإن لم يؤمِّنوا للحُجّاج سبيلا، ولم يأتوا بابن سعود وقومه قبيلا ...

يا قوم إنَّ الحقَّ فوق الأشخاص، وإنَّ السُّـنَّة لا تُسمَّى باسـم مَن أحياها، وإنَّ الوهَّابيِّـين قومٌ مسـلمون يشـاركوننا في الانتسـاب إلى الإسـلام، ويفوقونكم في إقامة شـعائره وحـدوده، ويفوقون جميع المسـلمين في هذا العصـر بواحدة؛ وهي أنَّهم لا يقـرُّون البدعة. ومـا ذنبهم إذا أنكروا ما أنكره كتابُ الله وسـنَّة رسوله [ﷺ] وتيسَّر لهم مِن وسائل الاستطاعة ما قدروا به على تغيير المنكر؟

أئـذا وافقنا طائفةً من المسـلمين في شـيءٍ معلوم مِـن الدِّين بالضَّـرورة وفي تغيير المنكرات الفاشـية عندنا وعندهم. والمنكـر لا يختلف حُكمه بحكم الأوطان.؛ تنسـبوننا إليهـم تحقيـرًا لنـا ولهـم، وازدراءً بنـا وبهـم، وإن فرَّقـت بيننـا وبينهـم الاعتبـارات؛ فنحـن مالكيُّـون برغـم أنوفكـم، وهـم حنبليُّـون برغـم أنوفكـم، ونحـن في الجزائـر وهـم في الجزيرة، ونحن نُعمِل في طريق الإصلاح الأقلام، وهم يُعمِلون فيها الأقدام، وهم يُعمِلون في الأضرحة المَعَاوِل، ونحن نُعمِل في بانيها المَقَاوِل»[29].

لقـد كان موقـف جمعيَّـة العلمـاء المسلمين مِن هؤلاء الطرقيِّين الطَّاعنين وسبِّهم وشـتمِهم، بحسـب ما تقتضيه المصلحة، فقد سكتوا عنهم حين اقتضى الأمرُ ذلـك، وردُّوا عليهم حين اقتضـى الأمر ذلك.

قال الميلي: «وقد كان من حقوقنا وفي استطاعتنا أن نجاريَ القوم مِن جنس عملهـم، فقـد قـال الله: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾ [الشورى: 40]، وقال أيضًـا: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النحل: 126]، وقـال أيضًـا: ﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾ [سورة البقرة]... فلم نسـتعمل حقَّنا المشروع رجاءَ أن يثوب إلى أولئك الجُناة علـى الآداب رشـدُهم، فيُقلعوا عن تلك الخطَّة السَّـافلة أو يَعرفهم عقلاءُ الأمَّة بسوء صنيعهم فيُعلنوا بسخطهم عليهم، لا دفاعًـا عنَّـا، ولكن غيرةً علـى الآداب العامَّة ووقايةً للمجتمع مِن مفاسد أقلامٍ تُشيع الفاحشة في الَّذين آمنوا...

وفي اجتمـاع شـوَّال، نظـر أعضـاءُ الإدارة في موقفهم مِن تهييج المغرضـين وتهييـج المُوالـين، فغلَّبـوا العقـل علـى العاطفـة، وقدَّسـوا حـقَّ الآداب العامَّة على حقِّهم، وأصـدروا قرار «13 شوّال» بالإعراض عمَّـا يوجَّـه إليهم مِن سبٍّ وسفه وشغب وشتائم وقذف...»[30].

وقـال تقيّ الدِّيـن الهـلالي. وهـو يتكلَّم بلسـان المصلحين.: «فإنَّنا لا ندعو النَّاس إلى أنفسـنا ولا ندعو إلى شـيخ متَّخذ وليجة دون الله ورسوله، كشيوخ الطرقيِّين، وإنَّما ندعوهم إلى سـنَّة خير الأنام عليه الصَّلاة والسَّلام.

وإذا كان الأمـر كذلـك؛ فأهـوَنُ ما نلاقيـه في هذا السَّـبيل الشـتمُ والهمز واللَّمز والنبزُ بالألقـاب، ونحو ذلك مِن سخط السَّـاخطين...»[31].

أمَّـا إذا اقتضـى الأمـر، أو فُهِـم السُّـكوت علـى أنَّـه إقـرارٌ للباطـل أو ضـعفٌ عن الحقّ؛ فقد قـال الإبراهيمي في مثـل ذلـك: «وجمعيَّة العلماء سـكتت طويـلا عـن هـذا الباطـل لعلَّـه يَبطُـل مِن نفسـه، وعـن هؤلاء المبطلـين لعلَّهم يرعَوُون، فما زادهم سـكوتُها إلا جُرأة، حتَّـى أوشـك السُّـكوت أن يكـون إقرارًا للباطـل، وقـد قـرَّرَت الآن أن لا تسـكتَ بعـد الآن، وسـتدمغ الباطـلَ بالحـقّ، والكذبَ بالصِّـدق، وستدافع عن نفسها

(29) «آثار الإبراهيمي» (1/123. 125).

(30) جريدة «السُّنَّة» (2/4).

(31) جريدة «الشِّهاب» (4/380).

كما دافعت عن الإسلام والعروبة، وهي تُشهد الله والأمَّة على أنَّها لم تبدأ بالهجوم، وإنَّما هي مدافعة عن نفسها بعدما أصبح سكوتُها سكوتًا عن الحقّ، وهي لم تتعوَّد أن تسكتَ عن الحقّ»[32].

ومع ذلك فقد كان ردُّ الجمعيَّة عن نفسها ببيان الأدلَّة والحجج، بعيدًا عن السِّباب والشَّتائم؛ وقد أنشأ بعض الموالين للإصلاح جريدة «الجحيم»، يردُّون بها على جريدة «المعيار» الطُّرقيَّة الَّتي اشتهرت بالسَّبِّ والثَّلب والشَّتم والقذف، واستعمل كُتَّاب «الجحيم» لغة «المعيار»، فلم يَرُق ذلك علماءَ الجمعيَّة، وتبرَّؤوا من الجريدتين، وإن كانت الأُولى في صالحهم.

قال الميلي: «وإنَّنا نُعلن براءتنا من الجريدتين، وسخطَنا على خطَّتهما، واستياءنا من لغتهما، وعدم تحمُّلنا لتَبِعَة نتائجهما، وإذا كنَّا نرى أنَّ البادئ أظلم، ونعلمُ أنَّ العرب تقول: «المرء مقتولٌ بما قَتل به؛ إن سيفًا فسيف، وإن خنجرًا فخنجر»، فإنَّ الشَّارع منع المقتصَّ من استعمال بعض الأسلحة الَّتي يستعملها الجاني. هذا بيانُنا اضطرَّنا إلى إذاعته بروزُ جريدة «الجحيم»، لا أطال الله حياتها وحياةَ سالفتها»[33].

ثانيا: التعدِّي الجسدي، وموقف الجمعيَّة منه

لم يكتفِ الطرقيُّون بسلاح الشَّتم والسَّبِّ والقذف والثَّلب؛ بل لجؤوا إلى الاعتداء بالضَّرب. وقد كان لكلٍّ من أحمد بوشمَّال[34] والزاهري[35] نصيبٌ من ذلك؛ فقد اعتَدَى على الأوَّل بعضُ الطرقيِّين وحاول ضَرْبه لَمَّا عجز عن الردِّ عليه بالقول[36]، واعتُديَ على الثَّاني بمدينة «وهران»، وألقت الشُّرطة القبض على الجاني[37].

غير أنَّ الحادثة الَّتي أفاضت الكأس، وبلغ بها السَّيل الزُّبى، حادثةُ الاعتداء على الإمام ابن باديس، رئيس جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريِّين.

فبينما ابن باديس راجعٌ إلى بيته بعد إلقاء درس التَّفسير في المسجد؛ إذا بغِرٍّ لئيم يختبئ له في طريقه، ويفاجئه بضربتين بدبّوس[38]؛ الأولى على رأسه والثَّانية على خدِّه تحت عينيه، وكان بيده الأخرى مُوسى[39] يريد أن يطعنه بها، ولكنَّ الله لطف به، فاستطاع أن يُمسك الجاني من يديه، وتدافعا إلى طريق ضيِّق فاستغاث ابن باديس النَّاس، ولكنَّ أثر الضَّربة أَوْهنه، فاستطاع المعتدي الهربَ والاختباء في مكان قريب من دار ابن باديس، ولمَّا حضر النَّاس أخذوا يبحثون عنه، وسدُّوا عليه منافذ الطَّريق، حتَّى وجدوه، فأخذوه وكادوا يفتكون به لولا تدخُّل الشَّيخ. ثمَّ حضرت الشُّرطة وألقت عليه القبض، وتبيَّن بعد التَّحقيق أنَّه من أتباع الطَّريقة العليويَّة[40].

وقد كان لهذه الحادثة صدى واسع في الجزائر وغيرها من البلاد، وسالت فيها أكواب من المِداد، وجادت فيها قرائح الكتَّاب والشعراء، مُنكِرة ومُنَدِّدَة بالاعتداء[41].

أمَّا موقف ابن باديس رحمه الله فكان غاية في الحلم، حيث منع النَّاس من الفتك بالمعتدي حين قُبض عليه.

وفي ذلك يقول العقبي:

كادوا به يسطون لو مكَّنْتَهم
من قتله لسَطَوْا به لولاكا
لله موقفُك العجيبُ بنهيهم
عن قتل مَن للقتل قد وافاكا
علَّمتهم كيف التحمُّل للأذى
فتعلَّموا درسًا على بلواكا[42]

وأمَّا جمعيَّة العلماء فإنَّها لم تقابل فعل الجُناة بمثله، بل استمرَّت تدعوهم إلى الحقِّ بالحجج والبراهين، وكلمات ملؤها الشَّفقة وحبُّ الخير للمسلمين ولو كانوا مخالفين.

قال العقبيّ: «نحن لا نحارب أحدًا من الطرقيِّين بعصا ولا مُوسى، ولا نضربهم بمُدْية ولا دبُّوس، وإنَّما نُبيِّن عقائدنا بالنُّطق باللِّسان والكتابة بالبنان، ونحتجُّ لصحَّتها بالدَّليل، فهل هم فاعلون كما فعلنا؟»[43].

□□□

(32) «آثار الإبراهيمي» (248/2).
(33) جريدة «السُّنَّة» (4/2).
(34) مدير جريدة الشِّهاب.
(35) محمَّد السعيد الزَّاهري، كان عضوًا إداريًّا في جمعيَّة العلماء ورئيس تحرير عدد من صحفها، وله فيها مقالات إصلاحيَّة قيِّمة، لكنَّه انقلب على الجمعيَّة في أواخر الثَّلاثينات الميلاديَّة، وأسَّس جريدة «الوفاق»، ضدها وضد شيخها الإبراهيمي، وقد ردَّ عليه الإبراهيمي في «عيون البصائر» (ص639). ثمَّ انضمَّ بعد ذلك إلى حزب الشَّعب بقيادة مصالي الحاج. توفِّي مقتولا (سنة 1956م).
انظر: «صراع بين السُّنَّة والبدعة»، لأحمد حمَّاني (132/2).
(36) انظر: جريدة «الشِّهاب» (891/2. 894).
(37) انظر: جريدة «الشَّريعة» (4/6).
(38) الدَّبُّوس: كتنُّور: واحد الدبابيس، للمقامع من حديد وغيره. «تاج العروس» (49/16).
(39) هي: السِّكين.
(40) جريدة «الشِّهاب» (676/2. 677).
(41) وقد جَمع ما كُتب حولها الشَّيخ أحمد حمَّاني في كتابه «صراع بين السُّنَّة والبدعة».
(42) جريدة «الشِّهاب» (814/2. 816).
(43) المصدر السَّابق (752/2).



الوقوف على حقيقة الحروف

لشيخ حرم الخليل الإمام أبي إسحاق إبراهيم بن عمر الجَعْبَرِيّ (ت:732 هـ)

فؤاد عطاء الله
مرحلة الدكتوراه - جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة

هـذه مخطوطة لطيفة، ودرَّة نادرة، ورسالة نافعة، لم تَرَ النُّور من قَبْلُ، عنوانها: «الوقوف على حقيقة الحروف»، وموضوعها مخارج الحروف العربيَّة وصفاتها، أحببْتُ أن أُقدِّمَها لقُرَّاء «مجلَّة الإصلاح» الكرام.

إنَّ العربيَّةَ هي لغة القرآن الكريم، وهي علم من علوم الآلة الَّتي لا تُفهَمُ الشَّريعةُ إلاَّ بتعلُّمها، وقد تميَّزَتْ بجملة من الخصائص الصَّوتيَّة الفريدة، لعلَّ أبرزَها أن حباها الله - عز وجل - بأوسع مدرج صوتيٍّ عرفَتْه اللُّغاتُ البشريَّةُ؛ إذ إنَّ مخارج حروفها تتوزَّع بين الشَّفتَيْن إلى أقصى الحلق، كما أنَّ صفات أصوات اللُّغة العربيَّة ثابتةٌ منذ أربعة عشر قرنًا، ولا يُعرَفُ مثلُ هذا الثَّبات في غيرها من لغات العالم.

وقد تفطَّنَ أعداءُ الأُمَّة إلى أهمِّيَّة اللُّغة العربيَّة في ثبات الإسلام ورسوخه في قلوبنا؛ فتفنَّنُوا في استخدام أخبث المكائد وأبشع الأساليب لمحوها من ألسنتنا، ويصوِّرُ الإمام محمَّد البشير الإبراهيمي رحمه الله هذه الحقيقة بأجمل عبارة فيقول: «وممَّا قاله أحدُ الحكَّام الفرنسيِّين في الجزائر: إنَّنَا لَن نَنتَصِرَ على الجزائريِّين ما داموا يقرؤون القُرآنَ ويتكلَّمون العربيَّةَ، فيجبُ أَن نُزيلَ القرآنَ من وجودهم، وأن نقتَلِعَ العربيَّةَ من ألسنتهم»(1).

هذا، وقد بيَّن علماءُ اللُّغة والشَّريعة الأهمِّيَّة الكبرى لدراسة مخارج الحروف العربيَّة وصفاتها؛ إذ لا يمكن قراءةُ القرآن الكريم، أو التَّحدُّث بالعربيَّة الفصحى إلاَّ بإعطاء الحروف حقَّها ومُستَحقَّها، يقول الإمام ابنُ الجزري في هذا الصَّدد ما نصُّه:

وبعدُ إنَّ هذه مُقدِّمَهْ
فيما على قارئه أن يعلمه
إذ واجبٌ عليهم مُحتَّم
قبل الشُّروع أوَّلاً أن يعلموا
مخارج الحروف والصِّفات
ليلفظوا بأَفْصَحِ اللُّغات(2)

وأهتبل هذه الفرصة لأدعوَ القائمين على إعداد مناهج التَّربية والتَّعليم في الجزائر إلى إدراج موضوع مخارج الحروف وصفاتها في مُقرَّرات المراحل التَّعليميَّة الابتدائيَّة والإكماليَّة والثَّانويَّة؛ فإنَّه من الغريب أن تخلوَ مناهجُنا الدِّراسيَّة من هذا الموضوع المحوري، الَّذي يُسهم بلا شكٍّ في ترسيخ القُدُرات اللُّغويَّة العربيَّة عند النَّاشئة، وقد تتبَّعتُ مناهجَ التَّعليم؛ فلم أَجِدْ ذكرًا لهذا الموضوع رُغمَ أهمِّيَّته؛ سوى ما تقدِّمُه بعضُ كلِّيَّات العلوم الشَّرعيَّة والعلوم اللُّغويَّة الَّتي تُعنَى بتدريس علوم القراءات واللِّسانيَّات العربيَّة.

وأشرع الآن في التَّعريف بالمخطوط:

■ ترجمة المؤلِّف:

هو إبراهيم بن عمر بن إبراهيم ابن خليل الجَعبري، أبو إسحاق، كنيته برهان الدِّين، وفي بغداد يُكنَى تقيَّ الدِّين، يقال له: شيخ حرم الخليل، ويعرف بابن السِّراج.

وُلِدَ بقلعة جَعْبَر على الفُرَات عام (640هـ)، وتعلَّم ببغداد ودمشق، واستقرَّ ببلد الخليل في فلسطين إلى أن تُوفِّيَ عام (732 هـ).

عالمٌ بالعربيَّة والقراءات، من فقهاء الشَّافعيَّة، قال عنه الإمام الذَّهبي رحمه الله: «العلاَّمة ذو الفُنون مُقرِئُ الشَّام

(1) «الآثار» (7/1).
(2) «الجزريَّة» (ص1).

برهَان الدِّين أَبُو إسحَاق الجَعبَرِيُّ، شَيخُ بَلَد الخَلِيل، لَه التَّصَانِيف المُتقَنَةُ فِي القرَاءَات وَالحديث وَالأصول العربيَّة وَالتَّاريخ وَغير ذَلِك، وَلَهُ مؤلَّف فِي علوم الحَدِيث»[3].

لـه نحو مئة كتاب بين نظم ونثر، أكثرها مُختَصَر، منها:

«خلاصة الأبحاث» شرح منظومة له في القراءات.

و«شرح الشَّاطبيَّة» في القراءات.

و«نـزهـة الـبررة في الـقـراءات العشرة».

و«مُوجَز في علوم الحديث».

و«حديقة الزَّهر» في عدد آي السُّوَر.

و«خميلة أرباب المقاصد» في رسم المصحف.

و«الشِّرْعَة» قراءات.

و«عقود الجمان في تجويد القرآن».

ورسالة في «أسماء الرُّواة المذكورين في الشَّاطبيَّة».

و«الرَّوضة» في الرَّسم[4].

■ عنوان المخطوط:

جاءت عبارةُ العنوان في النُّسخة الخطِّيَّة: «كتاب حقيقة الوقوف على مخارج الحروف»، وأمـا في فهرس مخطوطات جامعة الملك سعود فعنوانها: «حقيقة الحروف»، وفي فهرس المكتبة الوطنية السُّورية في دمشق أثبت لها اسم: «رسالة في مخارج الحروف وصفاتها».

والعبارات جميعُها مُتَّفقةٌ على أنَّ موضوعَ الرِّسالة حول مخارج الحروف العربيَّة وصفاتها.

■ نسبة المخطوط إلى المُؤَلِّف:

ممَّا يَدُلُّ على صحَّة نسبة الرِّسالة لمُؤلِّفها الإمام أبي إسحاق الجعبري أمران:

الأوَّل: ما أثبته النَّاسخُ في صدر الرِّسالة من نسبتها للإمام الجعبري رَحِمَهُ اللهُ.

الثَّاني: ما ذكره المترجمون للإمام أبي إسحاق الجعبري رَحِمَهُ اللهُ من أنَّ له ما يربو على مائة مُصَنَّف أكثرها مختصرات، فلا يَبعُد أن يكون هذا الكتابُ واحدًا منها.

■ وصف النُّسخ الخطِّيَّة:

يوجد من هذا المخطوط نسختان خطِّيَّتان:

الأولى: محفوظة في قسم المخطوطات في جامعة الملك سعود في الرِّياض، رقم حفظها: (850/3 مجاميع)، وهي نسخة حسنة، سليمة كلُّها، كُتبَت بخَطِّ النَّسخ المُعتَاد، واستعمل النَّاسخُ المِدَادُ الأحمر لإبراز بعض المُفرَدات، تقع في ورَقَتَين اثنَتَين.

الثَّانية: محفوظة في المكتبة الوطنيَّة السُّوريَّة في دمشق، رقم حفظها: (66).

وقد اعتمدتُ في تحقيق هذه الرِّسالة على النُّسخة الأولى المحفوظة في جامعة الملك سعود، حيث لم أتمَكَّنْ من الحصول على النُّسخة الثَّانية.



صورة الورقة الأولى من المخطوط

صورة الورقة الثَّانية من المخطوط

(3) «المعجم المُختَصُّ بالمحدِّثين» للذَّهبي (ص60)، «معرفة القرَّاء الكبار» للذَّهبي (ص397)، «فوات الوفيات» لابن شاكر (39/1).

(4) انظر ترجمته في: «المعجم المختصُّ بالمحدِّثين» للذَّهبي (ص60)، «معرفة القرَّاء الكبار» للذَّهبي (ص397)، «فوات الوفيات» لابن شاكر (39/1).

■ **النَّصُ المُحقَّق:**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتاب حقيقة الوقوف على مخارج الحروف

قال الشَّيخ الإمام الفاضل العالم برهان الدِّين الجَعبري شيخ حرم الخليل عليه السلام نفَعَ اللهُ به المسلمين آمين:

الحروفُ العربيَّةُ الأصولُ تسعةٌ وعشرون[5] حرفًا، خلافًا للمبرِّد[6] في جعل الألف والهمزة حرفًا واحدًا[7].

فالهمزة والهاء من أوَّلِ الحَلْق.

والعين والحاء من وسطه.

والغين والخاء من آخره.

والقاف من أوَّلِ اللِّسان، وممَّا يُحاذِيه من الحنك الأعلى.

والكاف بُعَيْدَه.

والجيم والشِّين والياء المُتحرِّكَة واللَّيِّنَة من وسط اللِّسان وممَّا يُحاذيه من الحنك الأعلى.

والضَّاد من إحدى حافَّتَي اللِّسان، وممَّا يليه من الأضراس، ومن الأيسَرِ أَيْسَرُ[8].

واللاَّم من آخر حافَّةِ اللِّسان، وممَّا يليه من اللِّثَّة فُوَيْقَ الضَّاحِك.

والنُّون من رأس اللِّسان؛ وممَّا يليه من اللِّثَّة؛ فُوَيْقَ الثَّنايا.

والرَّاء من ظَهْرِ رَأسِه، وممَّا يحاذيه من اللِّثَّة.

وقال الفرَّاء[9]: الثَّلاثةُ من رأس اللِّسان.

والطَّاء والدَّال والتَّاء من رأس اللِّسان من بين الثَّنايا العُليَا.

والظَّاء والذَّال والثَّاء من رأس اللِّسان وأطراف الثَّنايا العُلْيَا.

والصَّاد والسِّين والزَّاي من رأس اللِّسان ومن بين الثَّنايا السُّفلى.

والفاء من باطن الشَّفَةِ السُّفلى وأطراف الثَّنايا العليا.

والباء والميم والواو المُتحرِّكة واللَّيِّنَة من بين الشَّفَتَيْن، وانطباقهما مع الباء[10] أقوى من انطباقهما مع الميم، ولا ينطبقان مع الواو.

وحروف المدِّ وهي الألف، ولا تكون إلاَّ ساكنة، ولا يكون ما قَبْلَها إلاَّ من جِنْسِها، والياءُ السَّاكنةُ المكسورُ ما قبلَها، والواوُ السَّاكنةُ المضمومُ ما قَبْلَها، فمَخرَجُها من جوِّ الفم، وهو هواء، لكن ميَّزَها تصعُّدُ الألف، وتسفُّلُ الياء، واعتراض الواو فاعلم ذلك.

□□□

وأمَّا الحروفُ الفروعُ فمنها فَصِيحٌ وغيرُ فصيح.

فالفصيحُ: الواردُ في القرآن همزةُ بين بين، والألف المُمَالة، والصَّاد الَّتي كالزَّاي، فمَخرَجُ كلٍّ منها بين المُمَيِّز لأَصْلَيْه.

فلهذه الحروفِ صفاتٌ، تُمَيِّزُ المُشتَرِكات، وتُنوِّعُ المُختَلِفات، ومخارجها توابع لموصوفاتها إلاَّ الغُنَّة فإنَّها من الخَيْشُوم.

فالمهموسة عشرة، يجمَعُها (سَكَتَ فحثَّه شَخْصٌ)، وهي الَّتي يَجْرِي معها النَّفَس، والمجهور ما عداها، وهي الَّتي يَنْحَبِسُ معها النَّفَسُ.

والشَّديدةُ ثمانيةٌ يَجمَعُها (أجدت طبقك)، وهي الَّتي يَنحَصِر الصَّوتُ معها، والرِّخوَةُ ما عداها إلاَّ خمسة يجمعها (عمر نل)؛ فإنَّها بين الشَّديدة والرِّخوة.

والمُطبَقَة أربعة، وهي: الصَّاد،

(5) في الأصل: وعشرين.

(6) المبرِّد (210. 286 هـ): محمَّد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبو العبَّاس، المعروف بالمبرِّد، إمام العربيَّة ببغداد في زمنه، وأحد أئمَّة الأدب والأخبار، من كتبه «الكامل»، و«المُذكَّر والمؤنَّث».
انظر ترجمته في: «تاريخ العلماء النَّحويِّين» للتَّنوخي (ص53)، و«سير أعلام النُّبلاء» للذَّهبي (576/13).

(7) انظر تفصيل قول المبرِّد وأدلَّته ومناقشتها في: «سرُّ صناعة الإعراب» لابن جنِّي (55/1).

(8) يعني: إخراج الضَّاد من حافَّة اللِّسان اليسرى أيسر من إخراجه من اليمنى.

(9) الفرَّاء (144. 207 هـ): يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الدَّيلمي، مولى بني أسد، أبو زكريَّاء، المعروف بالفرَّاء، إمام الكوفيِّين، وأعلمهم بالنَّحو واللُّغة وفنون الأدب، وكان مُتكلِّمًا يميل إلى الاعتزال، من كتبه: «المقصور والممدود»، و«المعاني».
انظر ترجمته في: «سير أعلام النُّبلاء» للذَّهبي (118/10)، «البلغة في تراجم أهل النَّحو» للفيروزآبادي (313/1).

(10) في الأصل: التَّاء، وهو خطأ.

والضَّاد، والطَّاء، والظَّاء، وهي الَّتي يَنطَبِقُ الحنك معها، والمُنفَتِحةُ ما خلاها، وهي الَّتي ينفَتِح الحنك معها.

والمستعليَة سبعة؛ يجمعها (قظ خص ضغط)، وهي الَّتي يَستَعْلِي مَخرَجُها، والمُستَفِلَة ما سواها، وهي الَّتي يستفلُ مخرجُها.

والمُفَخَّمة حروفُ الإطباق، والباقيةُ مُرَقَّقَةٌ إلاَّ الرَّاء؛ فإنَّ أصلَها التَّفخيم، وقد تُرقَّقُ، وإلاَّ اللاَّم؛ فإنَّ أصلَها التَّرقيق؛ وقد تُفخَّم، كاسم الله تعالى بعد الضَّمَّة والفتحة، وهما المنحرفان.

والمُكرَّر الرَّاء، وليُتَحَفَّظْ من تكريره؛ فهو لَحْنٌ.

والمُتَفشِّي الشِّين؛ لانتشار صوته.

والمُستَطِيل الضَّاد؛ لامتداد مَخرَجِه.

والغُنَّيَّتان النُّون والميم، تَحرَّكا أو سكنا، وهي في الإخفاء والإدغام أكثر.

والصَّفِيريَّة السِّين، والصَّاد، والزَّاي، وهي صوت بين الثَّنايا.

وحروف العِلَّة الألف، والياء، والواو، والهمزة على رأي[11].

واللَّيِّنَة الياء والواو السَّاكنتان المفتوح ما قبلهما.

والهاوي الألف الممال؛ إلاَّ الألف والفتحة.

والإمالة جعل الألف كالياء، والفتحة كالكسرة.

والحروف القمريَّة الحَلْقِيَّة.

والشَّمسيَّة الشِّين والضَّاد لإدغام لام التَّعريف فيهما.

واللَّهويَّة القاف والكاف.

والشَّجْريَّة الجيم والياء.

والشَّفهيَّة الفاء والباء والميم والواو، لظهورهما عند لام التَّعريف.

والذَّلقيَّة[12] النُّون والرَّاء واللاَّم.

والنَّطْعيَّة الطَّاء والتَّاء والدَّال.

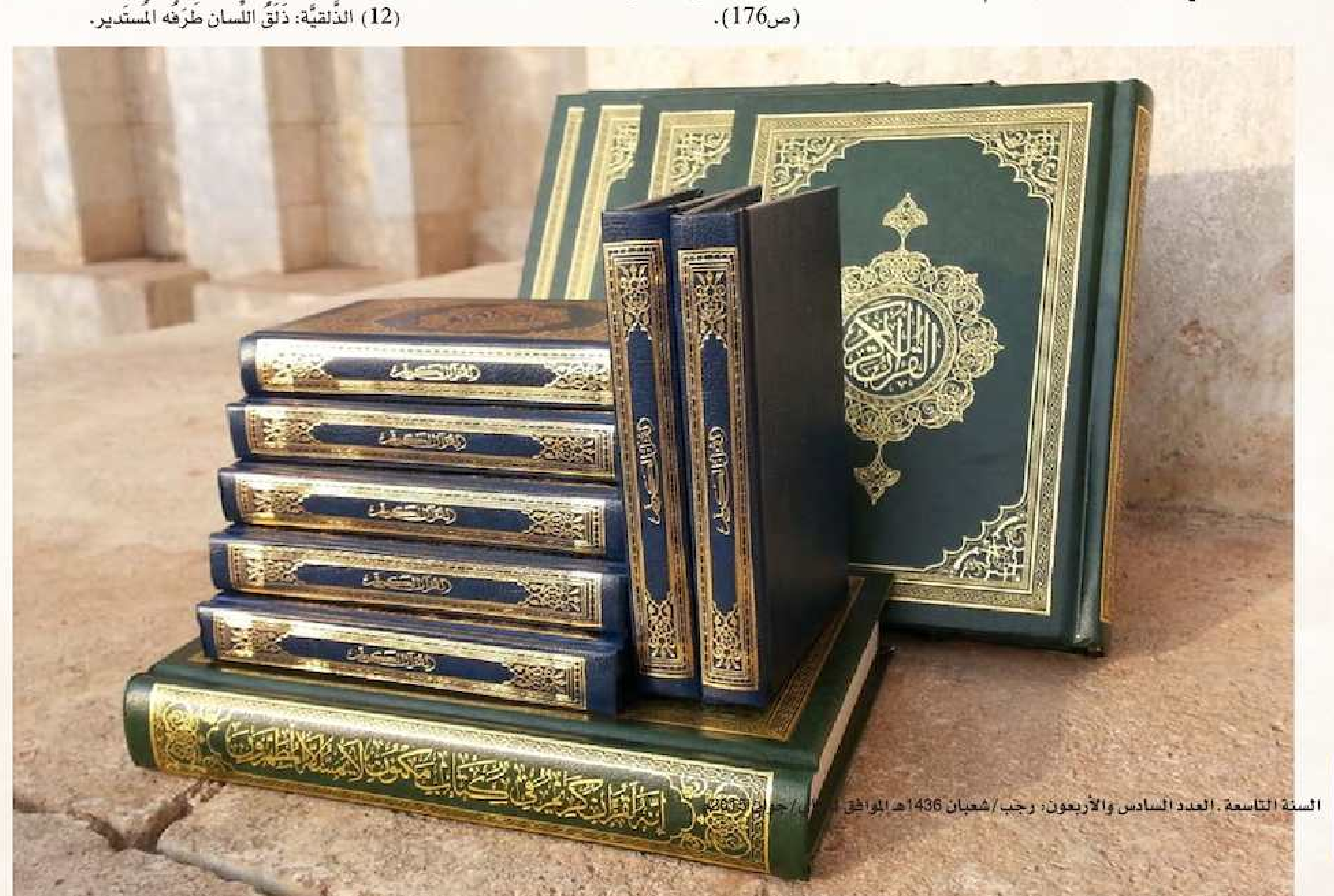
والأَسَلِيَّة السِّين والصَّاد والزَّاي.

واللِّثويَّة الظَّاء والذَّال والثَّاء؛ لإدغام لام التَّعريف فيها.

تمَّت بحمد الله تعالى.

(11) إليه ذهب الإمام الخليل الفراهيدي رحمه الله، انظر: «تصحيح الفصيح وشرحه» لابن المرزبان (ص176).

(12) الذَّلقيَّة: ذَلَقُ اللِّسان طَرَفُه المُستَدير.



التحفة الميمية في بيان العقيدة المنجية

الحبيب زوقاق
مستغانم



الحمد للإله المعبود ذي النَعم ... المتفرّد بعلم اللوح والقلم

ربّ البريّة ليس مثله أحد ... سبحانه المحيي الموجد من عدمِ

دانت له كلّ الرّقاب خاضعة ... لا فرق بين عليٍّ كان أو معدمِ

رحمتَه أرجو في فضله طامع ... أعظم به من ربٍّ واسع الرُّحمِ

جلّت أسماؤه تعاظم وصفه ... أيقن بذا العقد حقًّا بلا وهمِ

قرآنه خير الكلام منه بدا ... ليس بمخلوقٍ كسائر الكلِمِ

جنّات الخلدِ نِعمتِ الدّارُ ... سكّانها خير الأنامِ في الشّيم

وبِئست الدّار جحيم مُسعَّرةٌ ... تشوي الوجوه بلا نارِ تضطرمِ

يا ويل ساكِنها في غيّه غافلا ... ما أشقاه شديد الحزن والنّدم

رسولنا هادٍ بالسّنّة مرشدٌ ... إلى صراطِ ذي حقٍّ ومُعتصمِ

حبّ الرّسول على المحابّ مفضّل ... كالبدر ليلا يعلو سائر النُّجمِ

خيرُ الهدى هديُ البشير محمّدِ ... لا ريب في ذا القولِ الغرِّ الأسلم

كن به في كلّ الشُّؤون مستمكًا ... ترجو لقاءَك دارُ العزِّ والنّعم

واحذر بدع الدّين ساء مذهبُها ... تُردي صاحبَها في أحلكِ الرُّدمِ

من عاش للحقّ المبين متّبعا ... فارجُ له الفوزَ يوم زلّة القدمِ

رضوانُ ربّي على الأصحاب أجمعهم ... خير النّاس كذا القرونِ والأممِ

لا ريب فالصّدّيق كان أفضلهم ... وبعده تسعة من جيل مُلهَم

حازوا الفضائل كلّها على رشدِ ... ما أعدل مذهبًا للقومِ مُحترمِ



وأظلمُ النَّاس من يطعنهم لاذعًا
يرجو بطعنه قرابة بيتِ أكرمِ

تُعسًا وسُحقًا له من مذهب مائل
عن منهج الحقّ المختار الأحكمِ

صاحَ الحسابُ بُعيدَ الحشر مُنتظرُ
يا خيبته قليل السَّعي والهممِ

أفي جنان الخلدِ مُقامنا تُرى آبدٌ؟
أم هي نارٌ في أهوالها نُقْحَمِ

لا تنسَ ميزانًا لا يُغفل ذرّةً
مهما يكن شانها فإنّها تُعلَمِ

مراتبُ الدّين قد جاءت مفصَّلةً
في ثانِ متنٍ عن حافظٍ فهمِ

أولاهما إسلام ردَّ ظاهرنا
من حُسنه باتت الشُّرور في الظُّلمِ

ثمَّ بإيمانٍ تُجلَى بواطنُنا
من كلِّ سوءٍ أو شرٍّ مكتتمِ

يتبع إحسانٌ للمُحسنِ يُبذلُ
بلا رياءٍ عظيم الوزرِ والمأثمِ

واعلم أنّ الذنوب للفتى تغفرُ
بتوبةٍ خالصة القصد للمنعمِ

إلا شرّ الشِّرك فاجتنب جاهدًا
فإنَّه مصيرُ العذاب والنِّقمِ

أيقن يقينَ الأبرارِ بذا القدرِ
ولا تكن من أهل الزَّيغ الغُشَّمِ

فعلمه عندَ الباري العليم سبق
وفصلُه عن حكم خُطَّ بالقلمِ

مشيئةُ الجبَّار نافذٌ كونُها
وربِّيَ الخلاَّقُ أعْظَم راحمِ

وفرَّ من موبقاتٍ رُدِّد سردُها
في أكثر من حديث جامعِ الكلمِ

فإنَّها توبق النَّفس ولو آجلا
إن لم تستدركْها رحمة العاصمِ

رأيَ الخوارج جُهدَك فاجتنبِ
رأسُ البلايا فهُمُ كاسدِ خرمِ

وقول صُوفيٍّ يبدو كالعارفِ
يرجو مقامًا لا يُعطى بالحُلُمِ

يا سعدَ من كان لذا العقد منتصرًا
نصْر الذي لا يخاف لومة لائمِ

حَثُّ الإِخْوَانْ.. عَلَى اغْتِنَامِ شَهْرِ رَمَضَانْ

منوَّر عشيش
أم البواقي

رَمَضَانُ أَقْبَلَ يَا أَخَا الإِيمَانِ	هُوَ مَوْسِمٌ لِلْبِرِّ وَالإِحْسَانِ
يَا مَرْحَبًا بِالضَّيْفِ حَلَّ بِدَارِنَا	أَكْرِمْ بِضَيْفٍ لَيْسَ كَالضِّيفَانِ
شَهْرٌ كَرِيمٌ إِنْ أَتَانَا صُفِّدَتْ	أَعْدَاؤُنَا مِنْ زُمْرَةِ الشَّيْطَانِ
وَجَهَنَّمٌ قَدْ غُلِّقَتْ أَبْوَابُهَا	وَتُفَتَّحُ الأُخْرَى بِدَارِ جِنَانِ
وَتُضَاعَفُ الحَسَنَاتُ فِيهِ وَيُعْتِقُ الـ	ـرَّحْمَنُ أَقْوَامًا مِنَ النِّيرَانِ
يَا بَاغِيًا لِلْخَيْرِ أَقْبِلْ مُسْرِعًا	فَالشَّهْرُ رِبْحٌ دُونَمَا خُسْرَانِ
أَقْصِرْ أَيَا بَاغِ لِشَرٍّ إِنَّمَا	رَمَضَانُ لَيْسَ بِمَوْسِمِ العِصْيَانِ
رَمَضَانُ شَهْرُ تَقَرُّبٍ وَعِبَادَةِ	شَهْرٌ لِذِكْرِ اللهِ وَالقُرْآنِ
فَاحْرِصْ عَلَى خَتْمِ الكِتَابِ مُدَاوِمًا	رَتِّلْ كَلَامَ اللهِ كُلَّ أَوَانِ
فَرَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ مُحَمَّدٌ	لَيُدَارِسُ القُرْآنَ فِي رَمَضَانِ
يَأْتِيهِ جِبْرِيلُ الأَمِينُ مُعَارِضًا	فِي كُلِّ عَامٍ مِنْهُ يَلْتَقِيَانِ
وَكَذَلِكَ الأَسْلَافُ كَانَ صَنِيعُهُمْ	شَأْنٌ مَعَ التَّنْزِيلِ أَعْظَمُ شَانِ
لَا تُمْضِيَنَّ نَهَارَ صَوْمِكَ نَائِمًا	يَا خَيْبَةً لِلصَّائِمِ النَّوْمَانِ
قُمْ لِلصَّلَاةِ إِذَا دُعِيتَ مُهَرْوِلًا	كَيْمَا تُلَبِّي دَعْوَةَ الأَذَانِ
حَافِظْ عَلَيْهَا فِي بُيُوتِ اللهِ لَا	تَجْعَلْ صَلَاتَكَ بَيْنَ ذِي النِّسْوَانِ

وَاسْعَى إِلَى خَيْرِ الصُّفُوفِ مُسَابِقًا ... ثُمَّ السِّبَاقُ الحَقُّ فِي المَيْدَانِ

دَاوِمْ عَلَى ذِكْرِ الإِلَهِ فَإِنَّمَا ... سَبَقَ المُفَرِّدُ ثُلَّةَ الأَقْرَانِ

أَكْثِرْ مِنَ التَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ لاَ ... تَعْجِزْ أُخَيَّ وَلاَ تَكُنْ مُتَوَانِي

وَاصْبِرْ عَلَى صَوْمِ النَّهَارِ فَحَبَّذَا ... ظَمَأُ الهَوَاجِرِ يَا أَخَا الإِيمَانِ

إِنَّ الصِّيَامَ لَيُلْجِمُ النَّفْسَ الَّتِي ... رَتَعَتْ طَوِيلاً دُونَمَا حُسْبَانِ

يَا مَنْ كَفَفْتَ النَّفْسَ عَنْ شَهَوَاتِهَا ... لِلَّهِ فِي سِرٍّ وَفِي إِعْلاَنِ

أَبْشِرْ بِبَابٍ يَا أُخَيَّ مُفَتَّحٍ ... لِلصَّائِمِينَ بِجَنَّةِ الحَيَوَانِ

فَلَسَوْفَ يَدْعُوكَ الإِلَهُ مُنَادِيًا ... أَقْبِلْ أَيَا عَبْدِي إِلَى الرَّيَانِ

أَمْسِكْ لِسَانَكَ لاَ تَكُنْ لَهُ مُطْلِقًا ... إِنَّ اللِّسَانَ لَمُهْلِكُ الإِنْسَانِ

لاَ تُفْسِدَنَّ الصَّوْمَ مِنْكَ بِغِيبَةٍ ... وَنَمِيمَةٍ وَالعَيْبِ لِلإِخْوَانِ

خَابَ الَّذِي أَمْضَى نَهَارَهُ صَائِمًا ... عَنْ بَعْضِ أَكْلٍ أَوْ شَرَابٍ دَانِي

وَلِسَانُهُ مَا صَامَ قَطُّ عَنِ الخَنَا ... وَالطَّعْنِ فِي الأَعْرَاضِ بِالبُهْتَانِ

فَاحْفَظْ صِيَامَكَ جَاهِدًا وَلْتَبْتَعِدْ ... عَنْ كُلِّ مَا يُؤْذِي مِنَ الأَدْرَانِ

وَتَصَدَّقَنَّ عَلَى الفَقِيرِ فَإِنَّمَا ... رَمَضَانُ شَهْرُ الجُودِ وَالإِحْسَانِ

كَانَ النَّبِيُّ إِذَا أَتَى فَكَأَنَّمَا ... رِيحٌ يَسُوقُ القَطْرَ لِلْبُلْدَانِ

لاَ تَخْشَ نَقْصَ المَالِ وَاعْلَمْ مُوقِنًا ... أَنَّ الخَزَائِنَ فِي يَدِ المَنَّانِ

سَيَزِيدُ مَالُكَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعٌ ... أَنْفِقْ وَكُنْ مِنْ ذَا عَلَى اسْتِيقَانِ

أَدِّ التَّرَاوِيحَ الَّتِي هِيَ سُنَّةٌ ... قَدْ سَنَّهَا المُخْتَارُ مِنْ عَدْنَانِ

هِيَ أَنْجُمٌ وَاللهِ زَانَ ضِيَاؤُهَا ... تِلْكَ اللَّيَالِي دُونَمَا نُكْرَانِ

وَخِتَامُهَا العَشْرُ الأَوَاخِرُ إِنَّهَا ... مِنْ غَيْرِ شَكٍّ أَشْرَفُ الأَزْمَانِ

قُمْ وَاجْتَهِدْ فِيهَا وَأَيْقِظْ مَنْ تَلِي ... مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ مَعْشَرِ النِّسْوَانِ

فَبِهَا لأَفْضَلُ لَيْلَةٍ أَوَمَا سَمَتْ ... عَنْ أَلْفِ شَهْرٍ يَا أَخَا العِرْفَانِ!

هِيَ لَيْلَةُ القَدْرِ الَّتي مَنْ قَامَهَا ... فَلَهُ مِنَ الرَّحْمَنِ عَقْدُ أمَانِ

زَالَتْ عَنِ العَبْدِ الخَطَايَا كُلُّهَا ... وَغَدَا كَثَوْبٍ بَاهِرِ اللَّمَعَانِ

لاَ تُغْفِلَنَّ زَكَاةَ فِطْرِكَ وَلْتَكُنْ ... مِنْ قُوتِ يَوْمِكَ دُونَمَا الأَثْمَانِ

جَاءَتْ مُكَمِّلَةً لِمَا قَدْ كَانَ مِنْ ... نَقْصٍ أَلاَ إِنَّا ذَوُو نُقْصَانِ

وَإِذَا خَتَمْتَ الشَّهْرَ فَادْعُ اللهَ أَنْ ... يَتَقَبَّلَ الأَعْمَالَ بِالإِحْسَانِ

وَبِأَنْ يَمُنَّ وَيَغْفِرَنَّ الذَّنْبَ إِذْ ... مَنْ غَيْرُ رَبِّكَ وَاسِعُ الغُفْرَانِ!

وَاحْمَدْ إِلَهَكَ أَنْ هَدَاكَ فَرُبَّمَا ... بَعْضُ الخَلاَئِقِ بَاءَ بِالخُسْرَانِ

وَسَلِ الثَّبَاتَ إِلَى المَمَاتِ فَإِنَّمَا ... تِلْكَ القُلُوبُ بِأُصْبُعِ الرَّحْمَنِ[1]

(1) يعني بين أصبعين من أصابع الرَّحمن كما جاء في الحديث.



الخوارج أسماؤهم وأوصافهم



لم يَختلِف العُلماءُ ـ قديمًا وحديثًا ـ أنَّ الخوارجَ قومُ سُوءٍ، عُصاةٌ للهِ تعالى ولِرسولِه ﷺ وإنْ صَلَّوا وصامُوا، واجتهدوا في العِبادة، فليس ذلك بنافعٍ لهم؛ لأنَّهم قومٌ يتأوَّلون القُرآنَ على ما يَهْوَوْن، ويُمَوِّهون على المسلمين، وقد حذَّرنا الله تعالى منهم، وحذَّرنا النَّبيُّ ﷺ وحذَّرناهم الخُلفاءُ الرَّاشدون بعدَه، وكذلك الصَّحابةُ رضي الله عنهم ومَن تَبِعهم بإحسانٍ. والخوارجُ هم الشُّراةُ الأنجاسُ الأرجاسُ، ومَن كان على مَذهبِهم مِن سائرِ الخوارج، يَتوارثُون هذا المذهبَ قديمًا وحديثًا، ويَخرُجون على الأئمَّة والأُمراءِ، ويَستحلّون قَتْلَ المسلمين، فأوَّلُ قَرْنٍ طلع منهم على عهدِ النُّبوَّة ﷺ: هو رَجُلٌ طَعَن على رسولِ اللهِ ﷺ وهو يَقْسِمُ الغنائمَ[1].

□□□

أسماؤُهم:

للخوارج أسماءٌ كثيرةٌ[2]، يَقْبَلون بعضَها، ويُنْكِرون بعضَها، وأشهرها:

الخوارِجُ: وهو أَشْهَرُ أسمائهم، وسُمُّوا به: لِخُروجِهم ـ في أوَّلِ أَمْرِهم ـ على أميرِ المؤمنين عليِّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه، ثمَّ لِخُروجِ خَلَفِهم على أئمَّةِ المسلمين وجماعتِهم، أو لخروجِهم من الدِّينِ، لقوله ﷺ عنهم: «يَخْرُجُونَ مِنَ الدِّينِ»[3].

الحَرُوريَّةُ: لِنُزولِهم ـ في أوَّلِ أَمْرِهم ـ بِحَرُوراءَ، وهي قريةٌ بالكُوفة، وكانتْ أوَّلَ مُجتمَعِهم وتَعاقُدِهم، بعد أن انْفصلوا ـ في جماعةٍ كبيرةٍ ـ عن جيشِ عليٍّ رضي الله عنه أثناء عَوْدَتِه من صِفِّين.

المارِقةُ: لِمُروقِهم من الدِّينِ، وخُروجِهم منه سريعًا، كما جاء وَصْفُهُم في الحديث: «يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ»[4].

المُكَفِّرةُ: لِتكفيرِهم المسلمينَ بالكبائرِ التي دُونَ الشِّرك.

□□□

صفاتُ الخَوارجِ:

وردتْ أحاديثُ عن رَسولِ الله ﷺ كثيرةٌ، وآثارٌ عن السَّلفِ عديدةٌ، في ذمِّ الخَوارجِ ومَذهبِهم، نَذكرُ طَرَفًا منها لبيانِ صِفاتِهم الذَّميمةِ، وخِصالِهم القبيحةِ؛ لِيَحْذَرَهم النَّاسُ ويُحَذِّروا منهم. ونَكتفي بِذِكْرِ الشَّاهدِ مِن تلك النُّصوص:

1. «أَحْدَاثُ ـ وفي روايةٍ: حُدَثَاءُ ـ الأَسْنَانِ»[5].

«أَحْدَاثُ»: جَمْعُ حَدَث، وهو الصَّغيرُ السِّنِّ. و«الأَسْنَانُ»: جَمْعُ سِنٍّ، يُطلق ويُرادُ به: مُدَّةُ العُمُر. والمقصودُ: أنَّهم شَبابٌ، صِغارُ السِّنِّ. وحداثةُ السِّنِّ: مَحلٌّ للفسادِ عادةً، والتُّؤَدةُ والتَّثَبُّتُ وقُوَّةُ البصيرةِ تكونُ عند كمالِ السِّنِّ[6].

□□□

(1) انظر: «الشَّريعة» للآجُرِّي (1/325).

(2) انظر: «مقالات الإسلاميّين» للأشعري (1/111)، «التَّمهيد» لابن عبد البرّ (23/321)، «فِرق مُعاصرة» لعواجي (1/229).

(3) مسلم (1067) عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه.

(4) البخاري (3344) مسلم (1064) عن أبي سعيد رضي الله عنه.

(5) البخاري (3611، 6930)، مسلم (1066) عن عليٍّ رضي الله عنه.

(6) انظر: «نيل الأوطار» للشَّوْكاني (7/190).

2. «سُفَهَاءُ الأَحْلاَمِ»[7]:

«سُفَهَاءُ»: جَمْعُ سَفِيه، والسَّفَهُ -في الأصل-: خِفَّةُ العَقْلِ والطَّيْشُ. و«الأَحْلاَمُ»: جَمْعُ «حِلْم»: وهو العَقْلُ، وكأنّه من «الحِلْم» بمعنى: الأناةُ والصَّفْحُ والتَّثَبُّتُ في الأمور، فالحليمُ: هو الذي لا يَستفزُّه غضبٌ، ولا يَستخفُّه جهلُ جاهلٍ، ولا عصيانُ عاصٍ، وذلك من شعار العُقلاء. ومعنى: «سُفَهَاءُ الأَحْلاَمِ»: ضِعافُ العقول، أي: عُقولُهم رديئةٌ[8].

□□□

3. «يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ البَرِيَّةِ»[9]:

أي: يَنقُلون من خير ما يَتكلَّمُ به الخلائقُ، ويدَّعون التَّخلُّصَ من العلائق والعوائق. وهذا في ظاهر أَمْرِهم، وإلاَّ فهم يُجيدون القولَ، ويُسيئُون العملَ، ويُحسنون القراءةَ، ويُحرِّفون في التَّأويل[10].

□□□

4. «يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ لا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ»[11]:

جَمْعُ: حَنْجَرَة، وهي الحُلْقُوم. وفي رواية: «لاَ يُجَاوِزُ حُلُوقَهُمْ»[12]: جمع حَلْقُوم، وهو مَجْرى الطَّعَام وَالشَّرَاب وَالنَّفَسِ في الرَّقبة، ويُجمَع أيضًا على: حَلاقم وحَلاقيم. وفي رواية: «لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ»[13]: جَمْعُ تَرْقُوة: وهي العَظْمُ

(7) البخاري (3611)، مسلم (1066) عن عليٍّ رضي الله عنه.
(8) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (12/287).
(9) البخاري (3611)، مسلم (1066) عن عليٍّ رضي الله عنه.
(10) انظر: «مرقاة المفاتيح» للقاري (6/2311).
(11) البخاري (3611)، مسلم (1066) عن عليٍّ رضي الله عنه.
(12) البخاري (6931)، مسلم (1064) عن أبي سعيد رضي الله عنه.
(13) البخاري (3610)، مسلم (1064) عن أبي سعيد رضي الله عنه.

الذي بين ثُغْرة النَّحْرِ والعاتقِ، وهما تَرْقُوتانِ من الجانبَين.

وفي معنى هذه الصِّفة تأويلان:

قيل: إنّهم لمّا تأوّلوا القُرآنَ على غير سبيل السُّنّة المُبيِّنة له: لم تَفقهه قلوبُهم، ولا انتفعوا بما يَتْلون منه، فلم تَتجاوزْ قراءتُهم مَخارجَ الحُروف والأصوات، ولا لهم فيه حظٌّ سوى حَركة اللّسان وتلاوة الحَنْجَرة والحَلْق، إذْ بهما تَقطيعُ الحُروف، ولا يَحصُل لهم غيرُ مُجرَّد القراءة والسَّرْد، ولا يَترتَّبُ عليها آثارُها: من تَدبُّر القلب، وتَفهُّم مَعانيه، ولا يَتعدَّى إلى القُلوب والجوارح.

وقيل: إنّهم لمّا تركوا العلمَ بالقُرآن والعَملَ به: لم تَرتفعْ إلى الله قراءتُهم، ولا يَقْبلُها الله منهم، ولا يُثيبُهم عليها، ولا تَكتُبُها لهم الملائكةُ؛ لعَدم خُلوص النِّيّة، ولكَوْن أعمالهم مُخالفةً له؛ لسَفْكهم دماءَ المسلمين بغير حقٍّ[14].

ومن صفاتهم التي ذمَّهم بها السَّلفُ: أنّهم كانوا يَخشعون عند تلاوة المُحكم من الكتاب، ولكنّهم يَهْلكون عند المتشابه منه؛ فقد روى ابن أبي شيبة (37902) عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أنّه ذَكر ما يَلْقى الخوارجُ عند القُرآن فقال: «يُؤْمِنُونَ عِنْدَ مُحْكَمِهِ، وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ».

□□□

5. «لا تُجَاوِزُ صَلاتُهُمْ تَرَاقِيَهُمْ»[15]:

قيل: هو كنايةٌ عن عدم قَبولها، وأنّهم لا يَنتفعون بها، أو يعني بذلك: أنّ دُعاءَهم لا يُسمعُ ولا يُستجابُ له، وذلك

(14) انظر: «الاستذكار» لابن عبد البرّ (2/499)، «إكمال المعلم» للقاضي عياض (3/609)، «التّوضيح» لابن الملقّن (24/173).
(15) مسلم (1066) عن عليٍّ رضي الله عنه.

لأنَّ أصلَ الصّلاة -في اللّغة-: الدُّعاءُ[16].

□□□

6. «لا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ»[17]:

فالمرادُ: أنّ الإيمانَ لم يَدخُلْ قُلوبَهم، ولم يَرسخْ فيها؛ لأنَّ ما وقف عند الحُلقوم فلم يَتجاوَزْه: لا يَصلُ إلى القلب، فإيمانُهم باللّسان لا بالقلب، فهم يَنطقون بالشّهادتين، ولكن لا يَعرفونها بقلوبهم. وظاهرُ هذا: أنّهم غيرُ مُؤمنين؛ لأنَّ مَحلَّ الإيمان القلبُ[18].

ومنهم مَن فسَّر الإيمانَ -هنا-: بالصّلاة[19]، فيكونُ بمعنى الرِّواية الأخرى: «لا تُجَاوِزُ صَلاتُهُمْ تَرَاقِيَهُمْ»

□□□

7. «يَقُولُونَ الحَقَّ بِأَلْسِنَتِهِمْ لا يَجُوزُ هَذَا مِنْهُمْ» -وأشار إلى حَلْقِه-[20]:

فقولُهم وإنْ كان حقًّا من جهة القَول، فإنّه لا يُجاوزُ حُلوقَهم؛ ذلك أنّ الله تعالى أخبرنا بأنَّ العملَ الصّالحَ الموافقَ للقول الطّيِّب: هو الذي يَرفعُ القولَ الطّيِّبَ؛ فقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: 10][21].

□□□

8. «يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، ثُمَّ لا يَعُودُونَ فِيهِ»[22]:

(16) انظر: «المفهم» للقرطبي (9/89).
(17) البخاري (3611) عن عليٍّ رضي الله عنه.
(18) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (9/100) و(12/288، 293)، «التّوضيح» لابن الملقّن (20/194).
(19) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (12/288). ومن إطلاق الإيمان على الصّلاة: قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: 143] أي: صلاتَكم؛ وذلك لاشتمالها على قول ونيّة وعمل. انظر: «زاد المسير» لابن الجوزي (1/120).
(20) مسلم (1066) عن عليٍّ رضي الله عنه.
(21) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (12/299).
(22) البخاري (7562)، مسلم (1064) عن أبي سعيد رضي الله عنه.

وفي رواية: «يَخْرُجُونَ مِنَ الدِّينِ»[23]، وفي رواية: «يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ»[24]، وفي رواية: «يَخْرُجُونَ مِنَ الحَقِّ»[25].

والمعنى: أنّهم يَخرُجون من الإسلام بَغْتةً، وبسُرعة وسُهولة كخُروج السَّهم إذا رماه رامٍ قويٌّ السّاعد فأصاب ما رماه فنفذ بسُرعة، بحيثُ لا يَعْلَق بالسَّهم شيءٌ منه. وكذلك هم يَمُرّون على الدِّين سريعًا، تنبيهًا على أنّهم لا يَتمسَّكون منه بشيء، ولا يَتأثّرون به ولا يَنْتفعون، فكأنّهم لم يَدْخُلوه[26].

وقد اختلفَ أهلُ العلم في مدلولِ هذه الصِّفة:

فأخذ بظاهرِ هذه الرِّوايات بعضُهم، فقالوا بكُفرِ الخوارج[27].

وفَسَّر مَن لم يرَ تكفيرَهم «الدِّينَ»: بطاعة الإمام[28]. وردَّ هذا التّأويل: بأنَّ المرادَ مِنَ «الدِّين»: الإسلامُ، كما فسَّرَتْه الرِّوايةُ الأُخرى: «يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ» ويُؤيِّد هذا المعنى: قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19][29].

وحَمَل بعضُهم «الإسلامَ» على معنى: الاستسلام، وفَسَّروه بالانقياد والطّاعة[30].

ومنهم مَنْ قال: إنّه خرج مَخْرَجَ الزَّجر والتَّغليظ، أو المرادُ: يَخرُجون من الإسلام الكامل[31].

ومنهم مَنْ قال: إنَّ المقصودَ: كَفروا كُفْرَ النِّعمة: نعمة الإيمان[32].

وممّا عضَّدَ به القائلون بتكفير الخوارج قولَهم: الحديثُ الذي رواه ابن ماجه (176) عن أبي غالب عن أبي أُمامةَ يقول: «... قَدْ كَانَ هَؤُلَاءِ مُسْلِمِينَ فَصَارُوا كُفَّارًا» قلتُ: يا أبا أُمامةَ! هذا شيءٌ تقولُه؟ قال: بل سَمِعتُه من رسُول الله ﷺ[33].

ولكنْ حَمَله الجُمهورُ على أنَّ المرادَ به: الكُفرُ الأصغرُ، الذي لا يُخرِجُ من المِلَّة، وأنّهم مُبتدعةٌ؛ لأنّهم مُتأوِّلون، فلا يَكفُرون[34].

«ثُمَّ لَا يَعُودُونَ فِيهِ»؛ لأنَّ بدعتَهم صارتْ عقيدةً عندهم، وإذا اعتقد المرءُ شيئًا: فلا يكادُ يَرجِعُ عنه وإنْ كان باطلاً، وهذا شأنُ أهل الأهواء والبدع. وفيه إشارةٌ إلى شِدّة تَمسُّكهم بالباطل وإصرارهم عليه، وتَمكُّنه من نفوسهم، حيثُ يَعتقدون أنّهم على حقٍّ، وهم على باطل، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: 8][35].

□□□

9. «يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ»[36].

وهذا من صِدق نُبوَّته ﷺ، إذْ أخبر عن غائبات، فكان كما قال؛ لأنَّ الخوارجَ خرجوا زمنَ فُرْقة كانت بين عليٍّ ومُعاوية رضي الله عنهما ورَفضوا الحَكَمَيْن[37].

وضُبط: «يَخْرُجُونَ عَلَى خَيْرِ فِرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ». أي: على أفضلِ طائفة؛ عليِّ بن أبي طالب وأصحابه رضي الله عنهم، والأَوّلُ: المُعتمَدُ، وهو أشهر وأكثر، وإنْ كان هذا صحيحًا[38]، ويدلّ على الأوّل: قولُه ﷺ: «تَكُونُ فِي أُمَّتِي فِرْقَتَانِ، فَتَخْرُجُ مِنْ بَيْنِهِمَا مَارِقَةٌ، يَلِي قَتْلَهُمْ أَوْلَاهُمْ بِالحَقِّ»[39].

□□□

10. «هُمْ شَرُّ الخَلْقِ وَالخَلِيقَةِ»[40]:

قيل: هما بمعنًى واحد، وإنّما جاء باللَّفظين: تأكيدًا للمعنى، وأُريد بهما استيعابُ أصناف الخَلْق.

ولكنَّ العَطفَ لابُدَّ فيه من المُغايرة، أي: هم شَرٌّ سَجيّةً، وشَرٌّ خَلْقًا. ويَحتمل أنّه أرادَ بـ«الخَلِيقة»: مَن خُلِقَ، وبـ«الخَلْق»: مَن سيُخْلَقُ. وقيل: «الخَلْقُ»: مَصدرٌ، بمعنى: المخلوق، وهم النَّاسُ، و«الخَليقةُ»: البهائمُ[41].

وقال الإمامُ أحمدُ بنُ حَنبل رحمه الله: «الخَوَارِجُ قَوْمُ سُوءٍ، لا أَعْلَمُ فِي الأَرْضِ قَوْمًا شَرًّا مِنْهُمْ»[42].

□□□

(23) مسلم (1067) عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه.
(24) البخاري (3611)، مسلم (1066) عن عليٍّ رضي الله عنه.
(25) (حسن لغيره): أحمد (848) عن عليٍّ رضي الله عنه. انظر: «مُسند أحمد» (209/2) بتحقيق شُعيب الأرنؤوط وغيره.
(26) انظر: «مرقاة المفاتيح» للقاري (2315/6)، «فتح الباري» لابن حجر (294/12).
(27) انظر: «التّوضيح» لابن الملقّن (577/28)، «ذخيرة العُقبى» للإثيوبي (100/32).
(28) انظر: «مرقاة المفاتيح» للقاري (2311/6)، «النّهاية» لابن الأثير (149/2).
فائدة: قد يأتي الدِّين بمعنى السُّلطان والحُكم: نحو: قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾، وبمعنى الطّاعة، نحو قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي﴾.
(29) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (69/8). «ذخيرة العُقبى» للإثيوبي (126/23).
(30) انظر: «عُمدة القاري» للعَيْني (256/1)، «الكواكب الدّراري» للكِرماني (173/1).
(31) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (69/8).
(32) انظر: «حاشية السِّندي على سُنن ابن ماجه» (75/1).
(33) (حسن): انظر: «صحيح سُنن ابن ماجه» للألباني (146).
(34) انظر: «شرح سُنن ابن ماجه» للرّاجحي (4/11)، وانظر المسألة في «شرح مسلم» للنووي (50/2)، «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (382/3) و(217/7)، و«فتح الباري» لابن حجر (299/12).
(35) انظر: «شرح سُنن أبي داود» للعبّاد (346/27).
(36) البخاري (3610)، مسلم (1064) عن أبي سعيد رضي الله عنه.
(37) انظر: «كشف المُشكل» لابن الجوزي (120/3).
(38) انظر: «شرح مسلم» للنّووي (166/7)، «فتح الباري» لابن حجر (295/12).
(39) مسلم (1064) عن أبي سعيد رضي الله عنه.
(40) مسلم (1067) عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه.
(41) انظر: «الكاشف عن حقائق السُّنن» للطِّيبي (2503/8).
(42) «السُّنّة» للخَلّال (145/1).

11. «قَوْمٌ يُحْسِنُونَ القِيلَ، وَيُسِيئُونَ الفِعْلَ»[43]:

أي: يُحسنون القولَ، مثل قراءتهم القرآنَ، ولكنْ يُسيئون الفعلَ؛ بكونهم خرجوا على الإمام، ونابذوا المسلمين، وتَصدَّوا لهم وقاتلوهم. والمُرادُ: القولُ الحَسَنُ في الظَّاهر، كقولهم: «لاَ حُكْمَ إلاَّ للهِ» وباطنُه: على خلاف ذلك[44].

□□□

12. «يَدْعُونَ إلى كِتَابِ اللهِ، وَلَيْسُوا مِنْهُ فِي شَيْءٍ»[45]

وهو دليلٌ ضُعفهم في فقه دين الله تعالى، فيَستدلّون بالقرآن، ويُخطئون في وجه الاستدلال به، وممّا يؤكّدُ هذا المعنى قولُه ﷺ: «يَقْرَؤُونَ القُرْآنَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ»[46].

وقال البخاري رَحِمَهُ اللهُ في «صحيحه» (16/9): «كَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ يَرَاهُمْ شِرَارَ خَلْقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَالَ: «إِنَّهُمْ انْطَلَقُوا إِلَى آيَاتٍ نَزَلَتْ فِي الكُفَّارِ فَجَعَلُوهَا عَلَى المُؤْمِنِينَ»»[47]، أي: حرَّفوا مَعانيَ كتابِ الله تعالى بحَمْلِهم الآيات على غيرِ ما أُنزلتْ له.

ومِن أمثلة ذلك: قولُهم: «لاَ حُكْمَ إلاَّ للهِ» فهي مَأخوذةٌ من القرآن، من قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: 57]، ولكنَّها «كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ» كما قال عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[48]، أي: أنَّ الكلمةَ أصلُها صِدقٌ، لكنَّ القومَ أرادوا بها الإنكارَ على عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في تَحكيمه.

فهم يَدْعُون إلى كتاب الله، وهذا من أحسنِ القول، ولكنّهم مِن حيثُ التَّطبيقُ فلَيْسوا منه في شيءٍ؛ لأنّهم يُسيئون العملَ، وذلك بالخُروج على الأئمّة، وافتتانهم بآرائهم الفاسدةِ، وأفكارِهم المنحرفةِ الشَّاذَّةِ[49].

□□□

13. «سِيمَاهُمُ التَّحْلِيقُ» أو «التَّحَالُقُ»[50]:

وفي رواية: «سِيمَاهُمُ الحَلْقُ وَالتَّسْبِيتُ»[51]؛ وهو استئصالُ الشَّعْرِ القصير.

فعلامةُ الخوارج التي اتّخذوها دَيْدنًا، فصارتْ شِعَارًا لهم، وعُرِفوا بها: حَلْقُ رُؤوسِهم، وجَعلوا ذلك علامةً لهم على رَفضِهم زينةَ الدُّنيا، وهذا منهم جهلٌ بما يُزهَدُ فيه، وابتداعٌ في دينِ الله.

ولا يَستلزمُ هذا: أنَّ كُلَّ مَن كان مَحلوقَ الرَّأسِ: فهو من الخوارج، بل المرادُ: بيانُ صِفتهم الواقعة، والعلامةُ قد تكونُ بحرام، وقد تكونُ بمُباح، وليس المقصودُ: إرادةَ ذمِّ استئصالِ شَعْرِ الرَّأس، فقد ورد في السُّنَّة الصَّحيحة ما يدلُّ على جوازِ حَلْقه كُلِّه في غيرِ حجٍّ أو عُمرة؛ قال ﷺ: «احْلِقُوهُ كُلَّهُ، أَوِ اتْرُكُوهُ كُلَّهُ»[52]، ولكنْ يُنهى عنه: للتَّشبُّهِ بالخوارج، إلاّ في البلاد التي صارتْ عادةُ أهلِها التَّحليقَ، وتَرْكَ الشَّعْرِ شُهْرةً[53].

□□□

14. «قَوْمٌ يَتَعَبَّدُونَ وَيَتَدَيَّنُونَ»[54]:

أي: يَجتهدون في الطَّاعةِ والعِبادةِ، ويؤكِّدُ هذا المعنى:

قولُه ﷺ عنهم: «لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلا صَلاتُكُمْ إِلَى صَلاتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلا صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ»[55]، وفي رواية: «قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ»[56].

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيميّةَ رَحِمَهُ اللهُ «مجموعة الرّسائل والمَسائل» (84/5):

«فذَكرَ اجتهادَهم بالصَّلاة والصِّيام والقراءة، وأنّهم يَغْلُون في ذلك حتّى تَحقرَ الصَّحابةُ عبادتَهم في جَنْب عبادة هؤلاء.

وهؤلاء غَلَوْا في العبادة بلا فقه، فآل الأمرُ بهم إلى البدعة... فإنّهم قد استحلُّوا دماءَ المسلمين، وكفَّروا مَن خالفَهم».

□□□

15. «حتّى يُعْجِبُوكُمْ»[57]:

أي: يُعجِبون النَّاسَ بمَظْهرِهم لا بمَخْبرِهم، وهذا حالُ أهلِ النِّفاق، ولقد وَصفَ اللهُ المنافقين بقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: 4].

□□□

(43) (صحيح): أحمد (13338)، أبو داود (4765) عن أبي سعيد وأنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، انظر: «صحيح الجامع» للألباني (3668).
(44) انظر: «فتح الباري» (287/12) لابن حجر، «شرح سُنن أبي داود» للعبّاد (345/27).
(45) انظر الحاشية (43).
(46) مسلم (1066) عن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(47) وصله الطّبري في «مُسند عليٍّ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من «تهذيب الآثار» وصحّحه ابنُ حجر في «فتح الباري» (286/12).
(48) مسلم (1066) عن عُبيد الله بن أبي رافع.
(49) انظر: «شرح سُنن أبي داود» للعبّاد (347/27).
(50) البخاري (7562)، مسلم (1064) عن أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(51) (صحيح): أحمد (13036) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. انظر: «ظلال الجنّة» للألباني (458/2).
(52) (صحيح): أبو داود (4195)، النّسائي (5048) عن ابن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، انظر: «السّلسلة الصّحيحة» للألباني (1123).
(53) انظر: «إكمال المُعلم» للقاضي عياض (611/3)، «شرح مسلم» للنّووي (167/7)، «المفهم» للقرطبي (91/9)، «فتح الباري» لابن حجر (301/12).
(54) (صحيح): ابن أبي عاصم في «السُّنّة» (945) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، انظر: «ظلال الجنّة» للألباني (461/2).
(55) مسلم (1066) عن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(56) البخاري (5058)، مسلم (1064) عن أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
(57) (صحيح): ابن أبي عاصم في «السُّنّة» (945) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، انظر: «ظلال الجنّة» للألباني (461/2).

16. «تُعْجِبُهُمْ أَنْفُسُهُمْ»[58]:

العُجْبُ بالنَّفسِ سببٌ من أسبابِ ضلالِ أهلِ البدعِ، وهو مَدْخَلٌ من مَداخلِ الشَّيطانِ على العُبَّادِ والزُّهَّاد، ما لم يَعتصموا بالسُّنَّة. وقد حذَّرنا رَسُولُ اللهِ ﷺ من هذا الدّاء العُضال: العُجْب، فقال: «لَوْ لَمْ تَكُونُوا تُذْنِبُونَ خَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ: العُجْبَ العُجْبَ»[59].

□□□

17. طَعْنُهم في أُمرائهم، وشهادَتُهم عليهم بالضَّلالِ، وتَجويزُهم الجَوْرَ حتّى على النّبيِّ ﷺ:

وكفى بذلك أنَّ رأسَهم ومُقدَّمَهم ذا الخُوَيْصِرَةِ التَّميمي ردَّ على رسولِ اللهِ ﷺ أَمْرَه، ونسبَه إلى الجَوْرِ والظُّلم، ولو تَبصَّرَ لأبصرَ أنَّه لا يُتَصَوَّرُ الظُّلْمُ والجَوْرُ في حقِّ رسولِ اللهِ ﷺ[60]؛ روى البخاري (3344) ومسلم (1064) عن أبي سعيد الخُدْريِّ رضي الله عنه قال: بَعَثَ عَلِيٌّ رضي الله عنه إلى النَّبيِّ ﷺ بِذُهَيْبَةٍ فَقَسَمَهَا... فَأَقْبَلَ رَجُلٌ غَائِرُ العَيْنَيْنِ، مُشْرِفُ الوَجْنَتَيْنِ، نَاتِئُ الجَبِينِ، كَثُّ اللِّحْيَةِ مَحْلُوقٌ، فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ يَا مُحَمَّدُ! فَقَالَ: «مَنْ يُطِعِ اللهَ إِذَا عَصَيْتُ؟ أَيَأْمَنُنِي اللهُ عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَلَا تَأْمَنُونِي»، وفي رواية: «اعْدِلْ يَا مُحَمَّدُ! فَإِنَّكَ لَمْ تَعْدِلْ»[61].

قال ابنُ حجر رحمه الله «فتح الباري» (301/12): «وترجم أبو عوانة في «صحيحه» لهذه الأحاديث: بيانُ أنَّ سببَ خُروجِ الخوارجِ كان بسببِ الأَثَرَةِ في القِسْمة، مع كونِها كانت صوابًا، فخَفي عنهم ذلك».

□□□

18. «يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلَامِ، وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ»[62]

وقال عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه عن الذين خرجوا عليه: «فَإِنَّهُمْ قَدْ سَفَكُوا الدَّمَ الحَرَامَ»[63].

وهذا من تَسويلِ الشّيطانِ للقوم، وتَزْيينِه لهم سوءَ أعمالِهم فرَأَوْها حسنةً، فإنّه لمّا أحسَّ بِقلَّةِ عُقولِهم مَلَكها. وإنَّ الشّرعَ نَدَب إلى الشِّدَّة على الكُفّار، وإلى الرَّأفة بالمؤمنين، فقال ربُّ العالمين: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29] فعكس ذلك الخوارجُ، فحَكموا بكُفرِ مَن خالفَهم بسببِ الكبائر، واستباحوا دماءَهم، وتَركوا أهلَ الذِّمّة، فقالوا: نَفي لهم بعهدِهم، وتَركوا قتالَ المشركين، واشتغلوا بقتالِ المسلمين، وهذا كُلُّه مِن آثارِ عبادةِ الجُهّالِ الذين لم تَنشرحْ صُدورُهم بنُورِ العلم، ولم يَتمسَّكوا بحبْلٍ وَثيق، ولا صَحِبهم في حالِهم ذلك تَوفيق[64].

□□□

19. «كُلَّمَا طَلَعَ مِنْهُمْ قَرْنٌ قَطَعَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ»[65]:

قالَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلَّمَا خَرَجَ قَرْنٌ قُطِعَ، أَكْثَرَ مِنْ عِشْرِينَ مَرَّةً»[66].

ولَفْظ: «عِشْرِينَ مَرَّةً»: يَحتمل أنْ يكونَ من قولِ ابنِ عُمرَ رضي الله عنهما، فيكونُ سَماعُه هذا الكلامَ من النّبيِّ ﷺ أكثرَ من عشرين مرّةً، ويَحتمل أنْ يكونَ من مَقولةِ النّبيِّ ﷺ.

ومعنى الكلام ـ على هذا الاحتمال الثّاني ـ: أنّه كُلَّما ظَهرتْ طائفةٌ من الخوارجِ قَطعها الله، وأهلكها ودَمَّرها، بأنْ يُسلِّط عليهم أهلَ الحقِّ فيُقاتلونهم، ويَقطعون دابرَهم ـ في كُلِّ قَرْن ـ أكثرَ من عشرين مَرّةً، كما وقع للحَروريّة الذين قَطعهم الله تعالى على يدِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه[67].

□□□

20. «يَخْرُجُ فِي عِرَاضِهِمُ الدَّجَّالُ»[68]:

ومع أنَّ اللهَ تعالى يَقْطَعُ دابرَ الخوارجِ كُلَّما طلع منهم قرنٌ، غير أنّه يَبقى منهم فرقةٌ «حَتَّى يَخْرُجَ فِي عِرَاضِهِمُ الدَّجَّالُ». أي: في خداعهم، وفي بعضِ النُّسخ: «أَعْرَاضِهِمْ»: جَمْع: عَرْض، بمعنى: الجَيش العظيم، شُبِّه بالجَبلِ في عظمِه، أو بالسَّحابِ الذي سَدَّ الأُفُقَ[69].

والمرادُ: أنَّ الخوارجَ سَيَبْقَون إلى آخرِ الزّمانِ، وأنّهم سَيستمرُّون في الخُروجِ حتّى يَظهرَ في زمانِهم المسيحُ الدَّجالُ[70].

---

(58) (صحيح): ابن أبي عاصم في «السُّنّة» (945) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، انظر: «ظلال الجنّة» للألباني (461/2).

(59) (حسن): البيهقي في «شُعب الإيمان» (6868) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، انظر: «السِّلسلة الصّحيحة» للألباني (658).

(60) انظر: «المفهم» للقرطبي (85/9).

(61) البخاري (3138)، مسلم (1064)، ابن ماجه (172). واللّفظ له. عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(62) البخاري (3344)، مسلم (1064) عن أبي سعيد رضي الله عنه.

(63) مسلم (1066).

(64) انظر: «كشف المُشكل» لابن الجوزي (120/3)، «المفهم» للقرطبي (85/9)، «فتح الباري» لابن حجر (301/12).

(65) (حسن): أحمد (5562)، ابن ماجه (174) عن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما. انظر: «السِّلسلة الصّحيحة» للألبانيّ (2455).

(66) (حسن): أحمد (5562) عن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما.

(67) انظر: «حاشية السِّندي على سُنن ابن ماجه» (74/1)، «شرح سُنن ابن ماجه» للسُّيوطي (16).

(68) (حسن): ابن ماجه (174) عن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما. انظر: «السِّلسلة الصّحيحة» للألباني (2455).

(69) انظر: «تاج العروس» للزَّبيدي (394/18).

(70) انظر: «حاشية السِّندي على سُنن ابن ماجه» (74/1)، «شرح سُنن ابن ماجه» للسّيوطي (16).

وقال شيخُ الإسلام ابنُ تيميّة رحمه الله: «مجموع الفتاوى» (28/495-496): «فإنّه قد أَخْبر -في غير هذا الحديث- أنّهم لا يَزالون يَخرُجون إلى زَمن الدَّجال، وقد اتَّفقَ المسلمون على أنَّ الخوارجَ ليسُوا مُختصِّين بذلك العَسْكر، وأيضًا فالصِّفاتُ التي وَصَفها تَعُمُّ غيرَ ذلك العَسْكر، ولهذا كان الصَّحابةُ يَرْوُون الحديثَ مُطلقًا».

□□□

21. «يَتَعَمَّقُونَ في الدِّينِ حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهُ»[71]:

والتَّعمُّق في الدِّين: هو التّكلُّفُ، والتّقعُّر فيما لم يأت به نصٌّ شرعيٌّ من كتاب أو سُنّة، وهو داخلٌ في التَّشدُّد في العِبادة، والتَّنطُّع فيها، وقد ورد النَّهيُ عن ذلك: روى مسلم (2670) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أَلاَ هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ» قالها ثلاثًا، والمُتنطِّعون: هم المُتعمِّقون الغالُون، المُجاوزون الحُدودَ في أقوالهم وأفعالهم. وفي الحديث: التَّحذيرُ من الغُلُوِّ في الدِّين والتَّنطُّع في العِبادة، بالحمل على النَّفس فيما لم يَأْذنْ فيه الشَّرعُ، والشَّريعة مَوصوفةٌ بأنّها سَهْلةٌ سَمْحةٌ[72].

□□□

22. «مِنْ أَبْغَضِ خَلْقِ اللهِ إِلَيْهِ»[73]:

فمن حكمة الله تعالى: أنَّ مَن عمل بما يُحبُّه الله، أحبَّه الله، وكذلك مَن عمل بما يُبغضُه أبغضه، ولمّا كانت أعمالُ الخوارج ممّا يُسخط اللهَ، لم يُحبَّهم الله، بل مَقتَهم، وكَرِهَهُم كُرْهًا شديدًا. ولعلّ من أسباب ذلك: بُغضَهم للصَّحابة الكرام رضي الله عنهم، بل تَكفيرَهم لهم، وقد قال النّبيُّ ﷺ عن الأنصار: «فَمَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللهُ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللهُ»[74].

□□□

23. «الخَوَارِجُ هُمْ كِلابُ أَهْلِ النَّارِ»[75]:

وفي رواية: «كِلاَبُ النَّارِ، شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ»[76].

أي: إنّهم يكونون كلابًا لأهل النَّار حقيقةً؛ زيادةً في إهانتهم، وتَشويهًا لهم، وتَقبيحًا لصُوَرهم، مع إذاقتهم العذاب.

وقيل: إنّهم أخسُّ أهل النَّار وأرْذلهم، كما أنَّ الكلابَ في الدُّنيا أحقرُ الحيوان.

وقيل: يَتعاوَوْن في النَّار كَعُواء الكلاب، ويَنْبحون على أهلها من شدَّة العذاب كالكلاب. والأوَّلُ أولى.

والنُّكتة في تَغيير صُوَرهم: أنّهم أوَّلوا كتابَ الله، وأخرجوا المسلمين عن الإسلام بأدنى ذَنْب، فغيَّر اللهُ خِلْقتَهم إلى أَقْبح خِلْقة، وقيل: صاروا بسبب أعمالهم كلابًا، كما كانوا على أهل السُّنّة في الدُّنيا كلابًا، جَزاءً وِفاقًا[77].

□□□

24. «أَغَارُوا في سَرْحِ النَّاسِ»[78]:

أي: مِنْ إساءة العمل: أنَّ الخوارجَ يُغيرون في سَرْح النَّاس، والسَّرْحُ: هي البهائمُ التي يَذهبُ بها الرُّعاةُ للرَّعي في الصَّباح، ويُؤْتى بها في المساء، فهم يُغيرون على الإبل أو الغنم التي تَسرحُ، فيأخذونها مِنْ أهلها غَصْبًا وظُلمًا[79].

□□□

25. «قَطَعُوا السَّبِيلَ»[80]:

أي: أنّهم يَقْطعون الطَّريقَ، ويَمْنعون مَن يَسيرُ فيها بما يَفعلونه من اعتداءٍ وظُلم، فيَترصَّدون في المكامن؛ لقتل نفسٍ وإراقة دم بغير حقٍّ، أو لأخذ مالٍ ونَهْب مَتاع، أو لإخافة سبيلٍ وإرعاب ناس، اعتمادًا على الشَّوْكة، مع البُعد عن الغَوْث[81].

□□□

26. «اسْتَحَلُّوا أَهْلَ الذِّمَّةِ»[82]:

فالخوارج يَستبيحون دماءَ أهل الذِّمَّة وأموالَهم بغير حقٍّ، ويَستحلُّون قَتْلَ المُعاهَدين ظُلمًا. وقد حرَّمَ الشَّرعُ الاعتداءَ عليهم؛ روى البخاري (3166) عن عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرَحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»، والمُعاهَدُ: هو الذِّميُّ، من أهل الأمان والميثاق، الذي له مع المسلمين عَهْدٌ شرعيٌّ، سواء كان

«شرح سُنن ابن ماجه» للرّاجحي (10/11).

(71) (جيِّدُ الإسناد): أحمد (7038)، ابن أبي عاصم في «السُّنّة» (930) عن عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما. انظر: «ظلال الجنّة» للألباني (2/454).

(72) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (12/301).

(73) مسلم (1066) عن عليٍّ رضي الله عنه.

(74) البخاري (3783)، مسلم (75) عن البراء رضي الله عنه.

(75) (صحيح): الطّبراني في «المُعجم الكبير» (8042) عن أبي أمامةَ رضي الله عنه، أحمد (19130)، ابن ماجه (173)، ابن أبي عاصم في «السُّنّة» (904) عن ابن أبي أوفى رضي الله عنه. انظر: «ظلال الجنّة» للألباني (2/438).

(76) (صحيح): أحمد (22183)، التِّرمذي (3000)، ابن ماجه (176) عن أبي أمامةَ رضي الله عنه. انظر: «صحيح الجامع» للألباني (3347).

(77) انظر: «التّنوير» للصَّنعاني (6/59)، «التّيسير» للمُناوي (1/536).

(78) مسلم (1066) عن عليٍّ رضي الله عنه -موقوفًا-.

(79) انظر: «شرح سُنن أبي داود» للعبّاد (27/358).

(80) (صحيحٌ مَوقوف): أحمد (656)، الحاكم (2657) عن عبد الله بن شدّاد عن عليٍّ رضي الله عنه. انظر: «إرواء الغليل» للألباني (2459).

(81) انظر: «إرشاد السّاري» للقسطلاني (3/17)، «الشّافي» لابن الأثير (5/304).

(82) (صحيحٌ مَوقوف): أحمد (656)، الحاكم (2657) عن عبد الله بن شدّاد عن عليٍّ رضي الله عنه. انظر: «إرواء الغليل» للألباني (2459).

بعَقدِ جزْيةٍ، أو هُدْنةٍ مِنْ سُلطانٍ، أو أمانٍ مِنْ مُسلمٍ[83].

□□□

27. لَيْسَ فيهِمْ مِنْ أصحابِ رَسولِ اللهِ ﷺ أحَدٌ:

عن عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما قالَ: «لمَّا خَرَجَت الحَرُورِيَّةُ اجْتَمَعُوا في دَارٍ، وَهُمْ سِتَّةُ آلافٍ... فَخَرَجْتُ إِلَيْهِمْ... قَالُوا: فَمَا جَاءَ بِكَ؟ قُلْتُ: أَتَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ صَحَابَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، لأُبَلِّغَكُمْ مَا يَقُولُونَ، المُخْبَرُونَ بِمَا يَقُولُونَ، فَعَلَيْهِمْ نَزَلَ القُرْآنُ، وَهُمْ أَعْلَمُ بِالوَحْيِ مِنْكُمْ، وَفِيهِمْ أُنْزِلَ، وَلَيْسَ فِيكُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ...» الحديث[84].

أي: لم يكنْ فيهم أحدٌ من الصَّحابة رضي الله عنهم، بل كانوا يَطعنون فيهم، بل كفَّروا أغلبَهم، منهم: عليُّ بنُ أبي طالب، ومُعاويةُ ابنُ أبي سُفيانَ، وغيرُهما رضي الله عنهم.

□□□

وفي الأخير: نَذكُر بعضَ صفات الخوارج التي أشارَ إليها بعضُ أهلِ العلم:

1. لا يَرَوْن لأهلِ العلمِ والفَضلِ مَكانةً:

فزعمَ المُتقدِّمون منهم أنّهم أعلمُ من عليِّ بنِ أبي طالبٍ وعبدِ الله ابن عبّاسٍ ومِن سائرِ الصَّحابة رضي الله عنهم. ومِن مَظاهرِ الفكرِ الخارجيّ حديثًا: سُوءُ الأدبِ مع العلماءِ، ولَمْزُهم، وتَنقُّصُهم، وشَحْنُ القُلوبِ عليهم، والتَّجرُّؤُ على الطَّعنِ فيهم، اقتداءً بما فَعله رأسُهم ذُو الخُوَيْصِرَةِ مع النَّبيِّ ﷺ، ومن تلك الطُّعون في علماء السُّنَّة المُتَّبعين لمنهج السَّلف، نَبْزُهم بأنَّهم: عُلماءُ السَّلاطين، فُقهاءُ الحَيض والنِّفاس، عُلماءُ البَلاط، عُملاءُ الطَّواغيت، جَهَلَةُ فقهِ الواقع، تَلفيُّون، أَتباعُ ذَنَبِ بَغْلة السُّلطانِ... وما هذه إلاَّ سُنَّةُ المُبطلينَ الطَّاعنينَ في أهلِ السُّنَّة[85].

□□□

2. هُم أوَّلُ مَن فارقَ جماعةَ المسلمين:

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ رحمه الله «مجموع الفتاوى» (349/3): «ولهذا كان أوَّلَ مَن فارقَ جماعةَ المسلمين مِن أهلِ البدعِ: الخوارجُ المارقون... فالخوارجُ لمَّا فارقوا جماعةَ المسلمين، وكَفَّروهم، واستَحلُّوا قِتالَهم، جاءتِ السُّنَّةُ بما جاء فيهم».

□□□

3. يَرَوْن الخُروجَ على الإمامِ إذا خالفَ السُّنّةَ:

قال الشَّهرستاني رحمه الله «المِلل والنِّحَل» (ص 59): «ويُكفِّرون أصحابَ الكبائر، ويَرَوْن الخُروجَ على الإمام إذا خالفَ السُّنّةَ حقًّا واجبًا».

□□□

4. يُكفِّرون الرَّعيّةَ إذا كَفَرَ الإمامُ:

قال الشَّهرستاني رحمه الله «المِلل والنِّحَل» (ص 66): «على أنَّ الإمامَ إذا كَفَر: كَفَرتِ الرَّعيّةُ، الغائبُ منهم والشَّاهدُ».

□□□

5. يُجوِّزون قَتْلَ الأولادِ والنِّساءِ المُخالفينَ لهم:

قال السَّفاريني رحمه الله «لوامع الأنوار البَهيّة» (87/1): «وقيل: إذا كَفَر الإمامُ كَفَرتِ الرَّعيّةُ، حاضرًا كان أو غائبًا، والأطفالُ كآبائهم: إيمانًا وكُفرًا. وذكر عن نافع بن عبد الله الأزرق الخارجي أنّه: جوَّزَ قَتْلَ أولادِ المُخالفين له ونسائهم».

□□□

6. يُجوِّزون الكَبائرَ على الأنبياء، ويَرُدُّون السُّنّةَ إذا لم يَرِدْ صراحةً ما يُؤيِّدُها من القُرآنِ الكَريم:

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيميّةَ رحمه الله «الصَّارم المسلول» (ص 184): «وقد حكى أربابُ المقالاتِ عن الخوارج: أنّهم يُجوِّزون على الأنبياءِ الكبائرَ، ولهذا لا يَلتفتون إلى السُّنّة المُخالفة - في رأيهم - لظاهرِ القُرآنِ وإنْ كانتْ مُتواترةً، فلا يَرجُمون الزَّاني، ويَقطعون يدَ السَّارقِ فيما قلَّ أو كَثُر، زعمًا منهم على ما قيل: أنْ لا حُجَّةَ إلاَّ القُرآنُ، وأنَّ السُّنّةَ الصَّادرةَ عن الرَّسولِ ﷺ ليستْ حُجَّةً، بناءً على ذلك الأصلِ الفاسد».

نسألُ اللهَ تعالى أنْ يَقيَنا شرَّ الفتنِ، ما ظهر منها وما بطن، وأنْ يُريَنا الحقَّ حقًّا ويَرزُقنا اتِّباعَه، ويُريَنا الباطلَ باطلاً ويرزُقنا اجتنابَه، وصلَّى اللهُ وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه، ومَن اتَّبع هديهم، واقتفى آثارهم إلى يوم الدِّين، وآخرُ دَعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

■■■

(83) انظر: «مرقاة المفاتيح» للقاري (2261/6)، «الشافي» لابن الأثير (304/5).

(84) (حسن): النَّسائي في «السُّنن الكُبرى» (8522)، الحاكم في «المستدرك» (2656)، البيهقي في «السُّنن الكُبرى» (16740). انظر: «مُسند أحمد» (263/5) بتحقيق شُعيب الأرنؤوط وغيره.

(85) انظر: «الأجوبة المُفيدة» للفَوزان (ص98).



مبادرة تستحق التشجيع:

قام أحد الأئمَّة النُّبهاء في شرق البلاد بمبادرة تستحقُّ التَّثمين والتَّشجيع، مفادها: توزيع رسالة (القول المبين في الحقوق بين الزوجين) على مصالح عقود الزَّواج التَّابعة للبلدية، والتي بدورها تسلِّم نسخة من الرِّسالة لكلِّ زوج، وهذا بعد العقد المدني واستلام الدَّفتر العائلي، فجزاه الله خيرًا على هذه المبادرة الحسنة، ووفَّق الله غيره إلى العمل بمثل عمله؛ لنشارك جميعًا في إصلاح بيوتنا وأُسَرِنا، والله وليُّ التَّوفيق والتَّسديد.





إعداد: أسرة التحرير

هدي القرآن

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : 9].

قال محمَّد الأمين الشنقيطي رحمه الله:

«هذه الآية الكريمة أجمَلَ الله -جلَّ وعلا- فيها جميعَ ما في القرآن من الهدى إلى خير الطُّرُق وأعدَلِها وأَصْوَبِها، فلو تتبَّعْنا تفصيلَها على وجه الكمال لأتَيْنا على جميع القرآن العظيم؛ لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيرَيِ الدُّنيا والآخرة».

«أضواء البيان» (17/3)

من وحي السُّنَّة

قال ابن القيِّم رحمه الله:

«وقد سألوه -أي: النَّبيَّ ﷺ- عن وِصاله في الصَّوم فقال: «إنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إنِّي أَظَلُّ عِنْدَ رَبِّي يُطْعِمُنِي ويَسْقِينِي»، فأخبر ﷺ أنَّ ما يحصل له من الغذاء عند ربِّه يقومُ مقامَ الطَّعام والشَّرابِ الحيِّ، وأنَّ ما يَحصُلُ له من ذلك أمرٌ يَختَصُّ به، لا يَشرَكُه فيه غيرُه، فإذا أمسك عن الطَّعامِ والشَّرابِ فله عنه عِوَضٌ يقوم مقامَه، وينوب مَنابَه ويُغني عنه».

«الدَّاء والدَّواء» (ص460)

كلمة قيمة

كتَبَ إبراهيمُ بنُ أَدْهَم إلى سفيان الثَّوري: «منْ عَرَف ما يَطلُبُ هان عليه ما يَبذُلُ، ومَنْ أَطلَقَ بصرَه طال أَسفُه، ومن أطلق أَمَلَه ساء عمَلُه، ومن أَطْلَق لسانَه قَتَلَ نَفسَه».

«الزُّهد الكبير» للبيهقي (468)

من أخطائنا الشَّائعة

«نُخبَةُ الفِكَرِ» للحافظ ابنِ حجر رحمه الله بفَتح الكاف، وليس بإسكانها كما هو مشهورٌ عند النَّاس.

أخلاقنا

عن ابنِ عبَّاس رضي الله عنهما قال: «ثلاثةٌ لا أكافئهم:

رجلٌ وسَّعَ لي في المجلس لا أقدِرُ أن أُكافئَه ولو خرَجتُ له من جميع ما أملك.

والثَّاني من اغبرَّتْ قدماه بالاختلافِ إلَيَّ؛ فإنِّي لا أَقدِرُ أن أكافئَه ولو قطَّرْتُ له من دَمي.

والثَّالث: لا أقدر أكافئه حتَّى يكافئَه ربُّ العالمين عنِّي؛ مَنْ أنزَلَ بي الحاجةَ، لم يَجِدْ لها مَوضِعًا غَيرِي».

«شعب الإيمان» للبيهقي (10382)

لغتنا العربيّة

المُوجِبُ والمُوجَب

الموجِب بكسر الجيم العلَّةُ، والموجَب بفَتْحِ الجيم الثَّمرَةُ والنَّتيجةُ.

أوليات

- قال سعيد بنُ المُسيِّب رحمه الله: «إبراهيم عليه السلام أوَّلُ مَن اختَتَنَ، وأوَّلُ من أفاض، وأوَّلُ من قَصَّ الشَّارِبَ، وأوَّلُ مَنْ قصَّ الظُّفُرَ، وأوَّلُ مَنْ شاب».

«الأدب المفرد» (1250)

- أوَّلُ من دُفِنَ بالبقيع عثمانُ بنُ مَظعُون رضي الله عنه، وأوَّلُ مَنْ تَبِعَه إبراهيمُ ابنُ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم.

«مُصنَّفُ ابنِ أبي شيبة» (36023)

- أوَّلُ من صنَّفَ كتابًا في المغازي النَّبويَّة: موسى بنُ عقبة (141 هـ).

«سير أعلام النُّبَلاء» (6/ 114)

- أوَّلُ مَنْ صنَّفَ في التَّجويد: موسى بنُ عُبَيْدِ الله بنِ خاقَان البغدادي (325 هـ).

«غاية النِّهاية في طبقات القُرَّاء» (2/ 321)

- أوَّلُ من صنَّفَ في القراءات: أبو حاتم السِّجِسْتَاني البصري (255 هـ).

«غاية النِّهاية في طبقات القُرَّاء» (1/123)





بريد القراء

■ نشكر الأخ المبارك حسوي محمَّد عمر من خرَّاطة، ولاية بجاية، على حبِّه للمجلَّة وشُكره للقائمين عليها من المدير إلى آخر عامل، فنشكره كثيرًا على غَيرَته على التَّوحيد والسُّنَّة، فقد كتب مشاركةً مُوفَّقةً نبَّه فيها على الوحدَة الإسلاميَّة الَّتي دعا إليها القرآنُ الكريم، وعلى أنَّ النَّصرَ على الأعداءِ لا يكون إلاَّ بالتَّوحيدِ وطاعة الله العزيزِ الحميد.

كما أشادَ بجهودِ العُلمَاء الرَّبَّانيِّين؛ من أمثال أحمد ابنِ حنبل وابنِ تيمية ومُحمَّد بنِ عبدِ الوهَّاب وابنِ باديس والإبراهيمي ـ رحمهم الله ـ، في الدَّعوة إلى التَّوحيد والعلم النَّافع ومُحارَبة الشِّرك ومظاهره، والذَّبِّ عن الإسلام وأهله، ومواجهة الباطل وجُنده؛ ومن جَميلِ قولِه عنهم: «ولو أراد الواحدُ منَّا التَّعمُّقَ لوَجَدَ من المشايخ من قام بنفسٍ ما قاموا به من الجهاد في سبيل نشر العلم وحماية حَوْزَة الدِّين والإيمانِ الصَّفيِّ النَّقيِّ من كيد المُبتَدِعين المُضلِّلين عَبْرَ الأزمان».

فجزاه الله خيرًا، وجعلنا جميعًا من دعاة الحقِّ وأنصاره.

■ بعث إلينا أخونا الكريم أيُّوب هاشمي من خميس مليانة خطابًا يُعلمُنا فيه بانتشار القاديانيَّة بين طُلاَّب الجامعة، وهذا الأمر في غاية الخطورة والشَّرِّ؛ لذا فالواجب على طالب العلم أن يكون داعيًا إلى التَّوحيد ودَحض الباطل وكشف فساد هذه النِّحلة والتَّحذير من أهلها، كلٌّ بحسب علمه ووُسعه، وقد كتب مديرُ «مجلّة الإصلاح» الشَّيخ توفيق عمروني ـ وفَّقه الله ـ مقالاً مُفيدًا عن هذا المذهب الكُفريِّ، يمكن الاستفادةُ منه.

فجزى اللهُ أخانا أيُّوبَ خيرًا على غَيرَته على العقيدة الصَّحيحة، ونسألُه تعالى أن يَقيَ أُمَّتَنا شرَّ هذه الطَّائفَةِ الضَّالَّة.

■ وللأخ الوفيِّ متيش أحمد حسن الدُّعاءُ وجزيلُ الشُّكر على مراسلته ودفاعه عن القرآن العزيز.

أمَّا عن اقتراحه كتابةَ ردٍّ على نورِ الدِّين بوكروح الدَّاعي إلى إعادة ترتيب سُوَر القرآن، فعسى أن يكون قريبًا، على أنَّ هذه المسألةَ في غاية الوضوح ونهاية الاتِّفاق، ولا يزال المسلمون أجمعون يقرؤُون القرآنَ مُرتَّبًا وَفْقَ المُصحَف الَّذي كَتَبَه الخليفةُ الرَّاشدُ عثمان ابنُ عفَّان رضي الله عنه، والأمَّةُ لا تَجتَمِعُ على ضلالة.

فالحمدُ لله ربِّ العالمين، والعاقبةُ للمُتَّقين، ولا عُدوَانَ إلاَّ على الظَّالمين.

■ أمَّا الأخُ الفاضل رضوان شلغوم من ولاية وهران، فبارك الله فيه على مُتابعَته للمجلَّة وحُسنِ ظَنِّه بالقائمين عليها.

ونحن نُرحِّبُ بكلِّ مقالٍ علميٍّ مُفيد، والبابُ مفتوح للكتابة في موضوع «الاكتشافات العلميَّة وفق الضَّوابط الشَّرعيَّة»، واقتراحه ترجمةَ الطَّليعة باللُّغة الفرنسيَّة جديرٌ بالاهتمام ليَعُمَّ النَّفعُ، نشكره شكرًا جزيلاً.

■ جزى الله خيرًا النَّجيب أبا عُبَيْد الرَّحمن سعيد دقيش على تواصله معنا ومطالعته لمجلَّتنا، ولما يُكتَبُ فيها.

أمَّا عن اقتراحه فسَيُنظَرُ فيه، واللهُ المُوَفِّقُ والمفيد.

■ وسعدْنَا كثيرًا بمراسلة الأخت الكريمة أمِّ بُثَيْنَة، وتواصلها معنا ومتابعتها لموضوعات المجلَّة، مُمثِّلةً في ذلك الجانبَ النِّسوي.

ونقول لها: ثبَّتنا اللهُ وإيَّاك على الحقِّ المُبين.